اليواقيت الثمينة
في الأحاديث القاضية
بظهور سكة الحديد
ووصولها إلى المدينة

تأليف

العلامة النحرير صاحب القلم البارع والتحرير

الشيخ السيد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني الحسني الإدريسي

المتوفى ١٣٨٢ هـ

حققه وخرجه ووضع حواشيه

أحمد فريد المزيدي



Title: AL-YAWĀQĪT AL-ṮAMĪNAH FĪ AL-ʾAḤĀDĪṮ AL-QĀḌIYAH BIẒUHŪR SIKKAT AL-ḤADĪD WAWUṢŪLIHA ILA AL-MADĪNAH

(The Prophetic Hadiths about the appearance of the railway and its reaching the Medina)

Author: ʿAbdul-Ḥayy ben ʿAbdul-Kabīr al-Kattānī

Editor: Aḥmad Farīd al-Miziyadi

Publisher: Dar Al-kotob Al-Ilmiyah

Pages: 120

Year: 2006

Printed in: Lebanon

Edition: 1st

الكتاب: اليواقيت الثمينة في الأحاديث القاضية بظهور سكّة الحديد ووصولها إلى المدينة

المؤلف: السيد عبدالحيّ بن عبدالكبير الكتاني

المحقق: أحمد فريد المزيدي

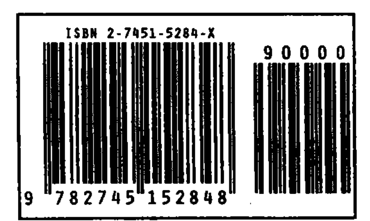
الناشر: دار الكتب العلميـــة ـ بـيروت

عدد الصفحات: 120

سنة الطباعة: 2006 م

بلد الطباعة: لبنـــان

الطبعة: الأولى



منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية بيروت لبنان

الطبعـة الأولى
٢٠٠٦ م.١٤٢٧ هـ

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications **Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah**

الإدارة : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ (١ ٩٦١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.

هاتف: ١٢ / ١١ / ٨١٠ ٠٨٠ ٥ ٩٦١+ ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
فاكس: ٨١٣ ٠٨٠ ٥ ٩٦١+ رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

التعريف بالشيخ المصنف

هو الشيخ الإمام الحافظ الشريف القطب من أهل التصريف، الغني عن التعريف، شيخ السجادة الوفائية بمصر: سيدي محمد عبد الحي بن عبد الكبير بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عمر بن إدريس الكتاني الحسني الإدريسي المغربي المالكي، أبو الإقبال، وأبو الإسعاد.

ولد سنة ١٣٠٢ هـ، وتوفي سنة ١٣٨٢ هـ.

من آثاره:

- منية السائل خلاصة الشمائل.
- لسان الحجة الطاهرة (بتحقيقنا).
- خبيئة الكون (بتحقيقنا).
- السر الحقي الامتناني الواصل إلى ذكر الراتب الكتاني.
- كشف اللبس بشأن وضع اليد على الرأس.
- البيان المعرب عن بعض ما ورد في فضل اليمن والمغرب.
- الرحمة المرسلة بشأن حديث البسملة.
- تبليغ الأمانة.
- فهرس الفهارس.
- التراتيب الإدارية.
- المظاهر السامية.
- حلاوة الصدق وحنظلية الكذب.
- مفاكهة ذوي النبل والإجادة حضرة مدير جريدة السعادة.
- ترجمة الشيخ محمد بن عبد الواحد الكتاني.
- ترجمة الشيخ المقري.

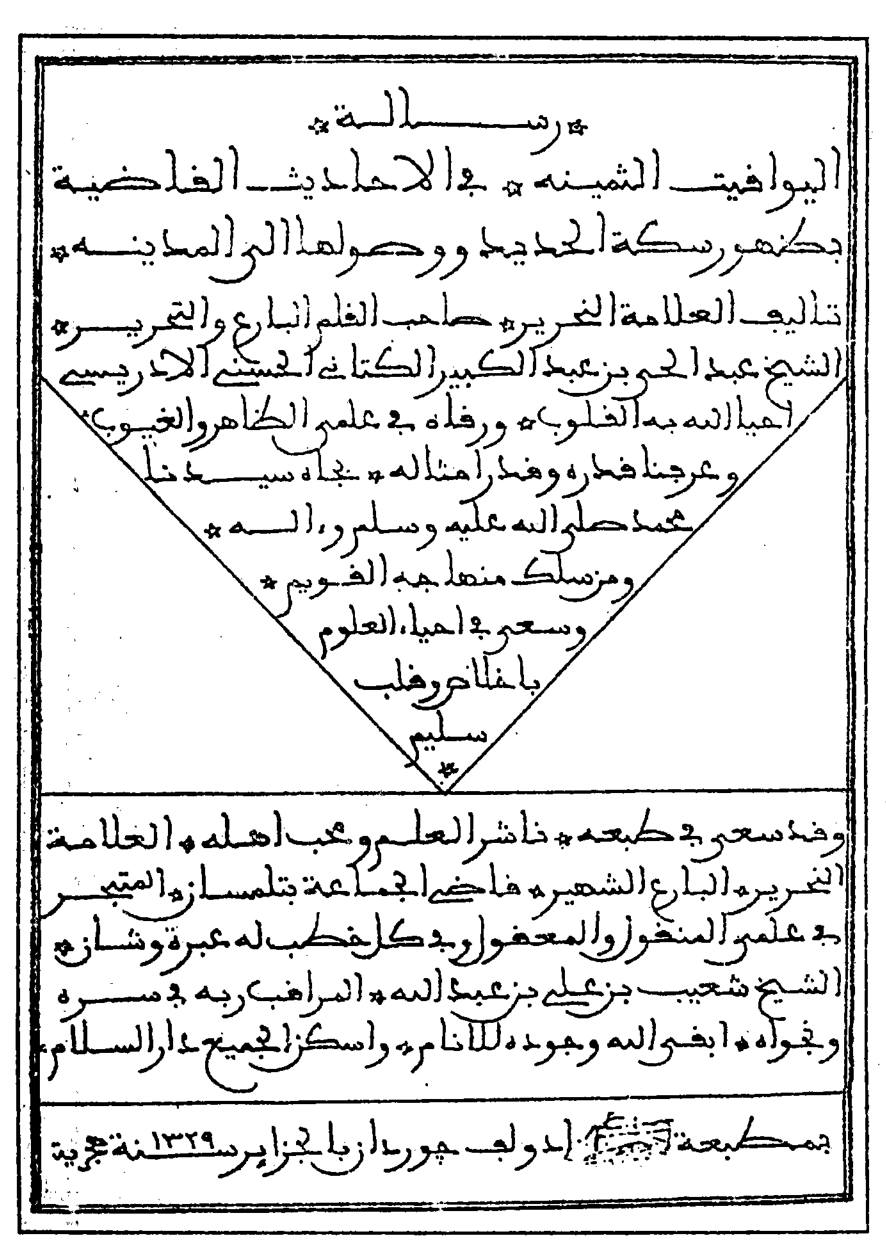
- حياة الشيخ عبد الكبير الكتاني.
- النبذة اليسيرة في تاريخ الدولة العلوية الشهيرة.
- الردع الوجيز لمن أبى أن يجيز.
- ماضي جامعة القرويين ومستقبلها.
- سيوط الأقدار.
- الأربعون المسلسلة.
- إتحاف الحفيد بترجمة جده الصنديد.
- الأزهر الأنور.
- ختم البخاري.
- بوارق النجوم.
- الإلمام ببعض أحاديث الحمام.
- العطايا الإلهية شرح قصيدة ابن فرح اللامية.
- منح القدير.
- ذيل العجلونية.
- منية القاصد.

وغيرها الكثير من مؤلفاته العظيمة النافعة التي نسأل الله أن يوفقنا في الجد والإسراع لإتحاف طلاب العلم الشريف لإخراجها حتى يحصل الهدى والنور ببركة أهل الحضور وأصحاب الحبور.

وصلى الله على سيدنا محمدٍ النور المبين، وآله الطيبين، وصحابته المقربين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

كتبه العبد الفقير المنكسر إلى ربه: أبو الحسن والحسين أحمد فريد آل المزيدي الحسني الأزهري.

صور من المخطوط



رسالة

اليواقيت الثمينة في الأحاديث القاضية

بظهور سكة الحديد ووصولها الى المدينة

تاليف العلامة النحرير صاحب القلم البارع والتحرير

الشيخ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني الحسني الادريسي

احيا الله به القلوب ورقاه في علمي الظاهر والغيوب

وعرفنا قدره وقدر امثاله بجاه سيدنا

محمد صلى الله عليه وسلم وآله

ومن سلك منهاجه القويم

وسعى في احياء العلوم

باخلاص وقلب

سليم

وقد سعى في طبعه ناشر العلم ومحب اهله العلامة

النحرير البارع الشهير قاضي الجماعة بتلمسان المتبحر

في علمي المنقول والمعقول وبكل خطب له عبرة وشان

الشيخ شعيب بن علي بن عبد الله المراقب ربه في سره

ونجواه ابقى الله وجوده للانام واسكن الجميع دار السلام

بمطبعة ادولف جوردان بالجزاير سنة ١٣٢٩ هجرية

صورة عنوان المخطوط

٢

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الحمد لله الذي بعث سيدنا محمدا مبشرا بالمغيبات،
منبئا عن كل ما ضر وات، فلم يدع شيئا من الأحداث الجديدة،
والغرائب العجيبة، والعجائب المنكرة والحميدة، إلا وعن
ظهوره أخبر، في صحيح حديثه الصادق الخبر وأشهد
أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له المنفرد بالعلم المطلق،
على سبيل الاستبداد الشامل للجزئيات والكليات من غير أن يتناهى
بالنص الحقيقي المعبر منه على من شاء من خاص عبيده فيوضات،
ورشحات امدادات وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا سيد
الأوائل والأواخر، من جرامه الأكابر والأصاغر، صلى الله
عليه وسلم وعلى آله الأئمة، القادات الهداة للأمة، وصحابته
الكبراء، الذين سبقوا في كل مكرمة فتركوا كل من يسايرهم إلى
وراء، أما بعد فيقول الفقير المقصر خادم الحديث
محمد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني الحسني الإدريسي تاب
الله عليه وهداه، آمين فقد سئلت عما إذا كان ما تقرر في
كتب المتأخرين صحيحا، ومنهجه واضحا صريحا، من أن النبي
صلى الله عليه وسلم كان بإعلام الله له يعلم سائر الغيوب،
من فضل ربه الإمداد الموهوب، فهل أتى نص صحيح، وحديث

بميم

صورة الصفحة الأولى

٩٠

وكيف لا والبعض من معلومه … فن علوم الشرع مع فلمه

وقد اتى بسر ابيه الولد … وبالخصوص من ابوه احمد

صلى عليه الله ما دام الجدا … يستنبط الادلة و حججا

واله وصحبه ذوي الهدى … وكل من بهديهم قد اقتدى

تاريخه بقولي شكر حق … لكل من اجاد علما يبقى

والحمد لله به اختتام … ثم على المؤلف السلام

انتهى

وقال ايضا وفقه الله تعالى وسدده وادام سروره وعافيته وتاييده

احمد من الهمنا … حفظ الكتاب المنزل … اصل العلوم كلها … اخص ما والاول

ثم صلاة الله ما … باح عبير المنزل … تترى على الهادي طه … مفتاح كل مقفل

والد الذي قربها منا … بعلم كل مرسل … والال والاصحاب مع … جميع من لهم ولي

هذا ولما اشرقت … على الجدار الاجمل … شمس اليواقيت التي … تضمنت ما قد جلي

من معجزات عصرنا … كالكهربا والتزيلي … مما به اتى الشيخ … ابراو جز اسهل

ومثله اقمر الخبير … والاسراع بالمنقل … فقلت بشر نصه … ما ينبي عن تعجل

ان اليواقيت غدت … تزهو لكل عاقل … اذ جلبها الذي حوت … قد غاب عن اوائل

لله در بكسه … ابي الاسعاد الاكمل … عبيد الحي ابن الولي … عبد الكبير الافضل

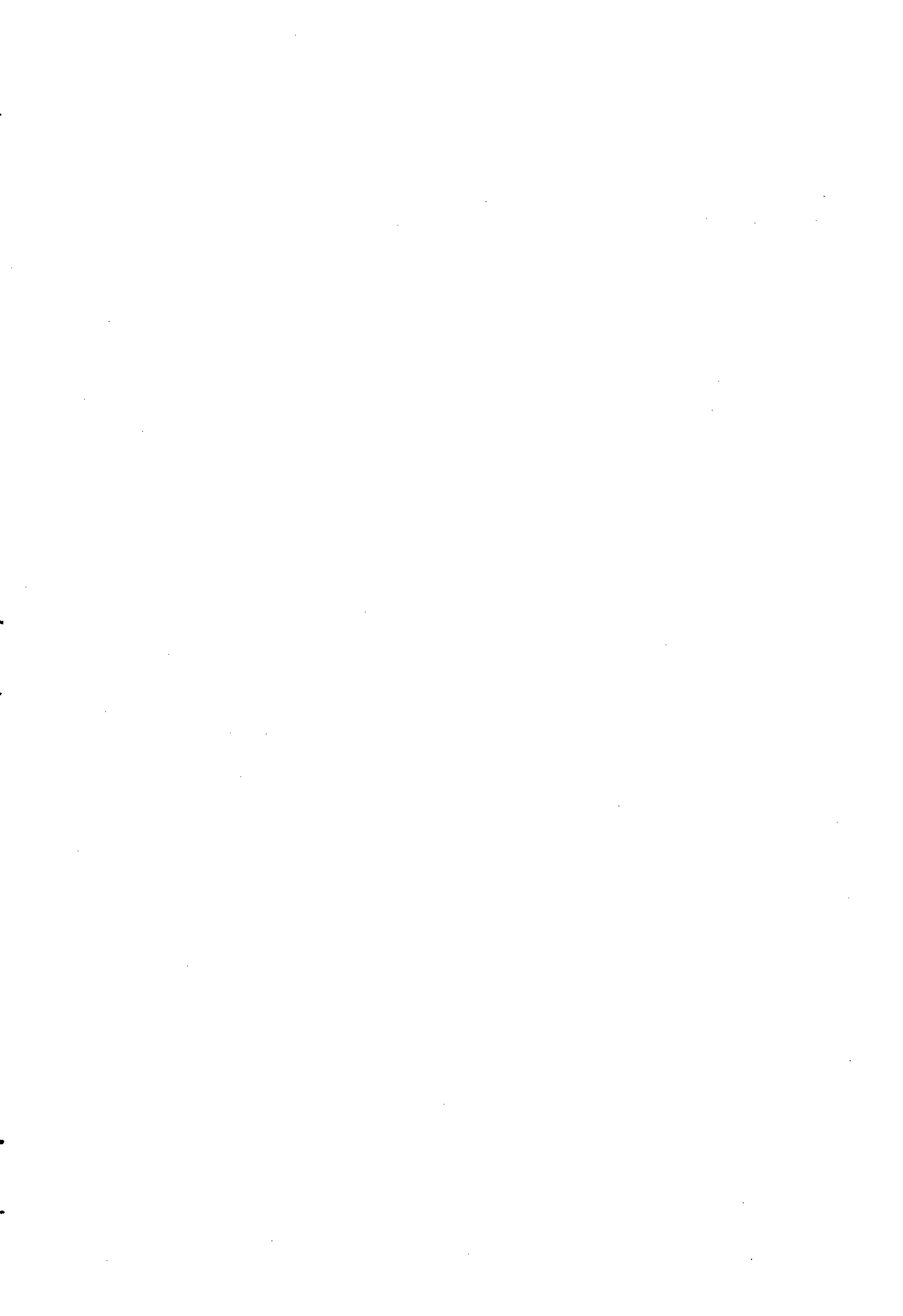
بينا به الحجة … من معجزات الرسل … صلى عليه ربنا … والال مع كل ولي

وعمنا جميعنا … بجاهه المولى العلي … قال ذا راجي رأفة … المولى الكريم الاعدل

شعيب العبد الراجي … غفران كل زلل … ورحمة ونعمة … دوما كغيث وابل

تم المقصود بحمد الله المعبود على يد كاتبه عبيد ربه الراجي اسنى
مواهبه محمد المدعو الشبيحي مجلد الكتب صناعة بالجنان آمين

صورة الصفحة الأخيرة



بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم

الحمد لله الذي بعث سيدنا محمدًا مبشرًا بالمغيبات، منبئًا عن كل ماضٍ وآت، فلم يدع شيئًا من الأحداث الجديدة، والغرائب المجيدة، والعجائب المنكرة أو الحميدة، إلا وعن ظهوره أخبر في صحيح حديثه الصادق المخبر.

وأشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له، المنفرد بالعلم المطلق على سبيل الاستبداد، الشامل للجزئيات والكليات، من غير أن يتناهى بالنص المحقق المعير منه على من شاء من خاص عبيده فيوضات ورشحات إمدادات.

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا سيد الأوائل والأواخر، من أعجز أمره الأكابر والأصاغر، ﷺ وعلى آله الأئمة، القادات الهداة للأمة، وصحابه الكبراء، الذين سبقوا في كل مكرمةٍ، فتركوا كل من يسايرهم إلى وراء.

أما بعد... فيقول الفقير المُقصِّر خادم الحديث محمد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني الحسني الإدريسي، تاب الله عليه وهداه آمين: قد سُئلت عمَّا إذا كان ما تقرر في كتب المتأخرين صحيحًا، ومنهجه واضحًا صريحًا، من أن النبي ﷺ كان بإعلام الله له يعلم سائر الغيوب، من فضل ربه الإمداد الموهوب، فهل أتى نصٌّ صحيحٌ، وحديثٌ فصيحٌ يخبر عن ظهور سكة الحديد في الأعصار الأخيرة، ووصولها إلى المدينة المنورة، معدن المناقب الكثيرة؟

فقلت: لو وجهت السؤال إلى غيري من علماء العصر بالمغرب والمشرق في كل بلدٍ ومصر، لكنت بالإفادة جديرًا، وبتحصيل الجواب خبيرًا.

فقال: فقد سألت من إليه يُشار، واستخبرت من هناك من القوم في كل دارٍ، فمن العلماء من توقف ، ومنهم من أحال في السؤال عليك وما اقترف.

فقلت: لعصر يراجع فيه إلى مثلي في مثل هذه النادرة لعصر العجائب، وبدر العلا خسف من توالي الغرائب، فمتى كنت هناك ، أو أشير إلَيَّ بذاك؟

فقال : لا محيد عن أبوابك، ولا أنتهز الفرصة بسؤال غيرك من أترابك، فحيث تعين عليَّ الأمر ، وعظم عليَّ رد السؤال، وكتم العلم لما فيه من الخطر.

قلت: هـذه معجزة من معجزات من إليه ننتسب، وإخبار بمغيب من أبينا المصدر الذي بالغرب إليه نحتسب، فآله بإفشاء معجزاته في عصر الظلمات أحرى وأوجب، وفي وقتٍ كثر فيه الكفر، ونفق فيه الشك في الدين أقرب وأنسب.

* * *

[بيان في الحث على فهم أسرار السُّنة النبوية]

ولا شكَّ أن من طالع كتب السُّنة الصحيحة، وخالط كلماته ﷺ الفصيحة، يجده ﷺ لم يدع نبأ إلا وبه أخبر وله أشار، ولا أمرًا غريبًا وحدثًا عجيبًا، تتشوف له الأبصار، استغربه طويل الأعمار، ممن جابوا البراري والقفار، ووجه الأرض وأعماق البحار، إلا وبه عمت منه ﷺ الأخبار، ولكن الناس لا يجدون ذلك في السُّنة؛ لأنهم لا يقرؤون كتبها، قد هجروا أسبابها وطلابها، وإن قرؤا كتابًا من كتب الحديث عنوا بالأعاريب، وضبط الغريب، من غير تفطنٍ لمخبئاته، ولا لأسرار معمياته.

وفي أول شرح الشيخ عبد الرءوف المناوي الكبير على الجامع الصغير، نقلاً عن الصدر القونوي ما نصّه:

غالب من يتكلَّم على الأحاديث، إنما يتكلم عليها من حيث إعرابها، والمفهوم من ظاهرها بما لا يخفى على من له أدنى مسكة في العربية، وليس في هذا كبير فضيلة ولا مزيد فائدة، إنما الشأن في معرفة مقصوده ﷺ، وبيان ما تضمَّنه كلامه ﷺ من الحكم والأسرار بيانًا تعضده أصول الشريعة، وتشهد لصحته العقول السليمة انتهى منه.

ونقل في شرح الحصن على قوله ﷺ: «**أعوذ بك أن أظلم أو أظلم**[1]» ما نصّه:

نقل المناوي عن بعض العارفين أنه يجب التدقيق في فهم كلام النبوة، ومعرفة ما تحته من الأسرار انتهى[2].

---

(١) رواه أبو داود (٩١/٢)، والنسائي (٤٥٦/٤)، وأحمد (٣٢٥/٢).

(٢) انظر: فيض القدير (٣٨٢/١).

ولا شكَّ أن السُّنة بيَّنت القرآن الذي قال الله فيه: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨].

وقال أيضًا: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

وفي حديثٍ عن الترمذي وغيره: «**ستنزل فتن، قيل: وما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وما بعدكم، وحكم ما بينكم**[1]».

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن أبي هريرة ﷺ رفعه: «**إنَّ الله لو أغفل شيئًا لأغفل الذرة والخردل والبعوضة**[2]».

***

[بيان في أسرار القرآن الكريم]

وفي طالعة الإكليل في استنباط التنزيل لعلاَّمة الأمة الحافظ المجدد المجتهد على رغم أنف المعاند الجلال الأسيوطي: ما من شيءٍ إلا ويمكن استخراجه من القرآن لمن فهمه الله، حتى أن بعضهم استنبط عُمر النبي ﷺ ثلاثًا وستين من قوله في سورة المنافقين: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون:١١]، فإنها رأس ثلاث وستين سورة، وعقبها بالتغابن ليظهر التغابن في فقده ﷺ.

وقال المرسي: جمع القرآن علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط بها علمًا حقيقة إلا المتكلم بها، ثم رسول الله ﷺ، خلا ما استأثر به سبحانه، ثم ورث منه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم مثل الخلفاء الأربعة، ومثل ابن مسعود وابن عباس، حتى قال: لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله، ثم ورث عنهم التابعون ذلك.

وفي الفتوحات المكية لإمام العرفاء، مقدم كتيبة العظماء، الشيخ محيي الدين قدس سره العاطر، لدى الباب الخامس والعشرين وثلاثمائة بعد كلامٍ:

وإذا كان مقام القرآن ومنزلته ما ذكرناه، وجد كل موجودٍ فيه ما يريد، ولذلك كان يقول فيه الشيخ أبو مدين: لا يكون المريد مريدًا حتى يجد في القرآن كل ما يريد.

---

(١) رواه الدارمي في السنن (٥٢٦/٢)، والبزار في مسنده (٧٢/٣).

(٢) رواه الديلمي في الفردوس (٢٧٤/٥).

[بيان في استنباط الحوادث المستقبلية من القرآن الكريم]

وفي تفسير الإمام أبرع النحاة أثير الدين أبي حيان الأندلسي المُسمَّى بالبحر:

كان شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير يحكي عن أبي الحكم بن برجان أنه استخرج من قوله تعالى: ﴿الم*غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ إلى: ﴿سِنِينَ﴾ [الروم:١: ٤] افتتاح المسلمين بيت المقدس معينًا زمانه ويومه، وكان إذ ذاك بيت المقدس قد غُلبت عليه النصارى، وأن ابن برجان مات قبل الوقت الذي عينه للفتح، وأنه بعد موته بزمانٍ افتتحه المسلمون في الوقت الذي عينه أبو الحكم، وكان أبو جعفر يعتقد في أبي الحكم هذا أنه كان يتطلَّع على أشياءٍ من المغيبات يستخرجها من كتاب الله انتهى[1].

ويرشدك إلى أن أصل ذلك معلومٌ عند الصدر الأول، وإن اختلفوا من بعض الحيثيات، قول علي ﷺ لما سُئل: «**هل أسرَّ إليكم الرسول شيئًا كتمه عن غيركم؟ فقال: لا، إلا أن يؤتي الله عبدًا فهمًا في كتابه**[2]»، وهو في الصحيح.

وقد ذكرت جملة من الاستنباطات العجيبة المأخوذة من القرآن بطريق الأعداد وغيرها في كتابي: «**السر الحقي الامتناني**» المطبوع في فاس بما لم أسبق إليه بحمد الله، راجع صحيفة: ١٧٥ منه.

* * *

[بيان في صلاة أهل البلغار وصومهم]

ومما يحسن استطراده هنا أنه كان ورد على فاس قاض من قضاة المغرب في سنة ١٣٢٤ هـ فألقى عليَّ سؤالاً أورده عليه نصراني قائلاً إذا كانت البعثة المحمدية عامة، والشّرع متسع، وفي القرآن بيان كل شيءٍ، فأين النص في القرآن على صلاة أهل أرض البلغار وصومهم؛ فإن الشمس لا تغرب عندهم في بعض الأحيان إلا مقدار ما بين المغرب والعشاء ثم تطلع؟

فأجبته على البديهة بحديث الصحيح: «لا تصوموا حتى تروا الهلال، ولا

---

(١) الشيخ ابن برجان صاحب شرح أسماء الله الحسنى، أكبر ما صنف في نوعه (كدت أنتهي من تحقيقه)، والتفسير ، بحوزتنا صورة منه.

(٢) رواه البخاري (٣/١١١٠)، (٦/٢٣٥١) بنحوه.

تفطروا حتى تروه، فإن غمَّ عليكم فاقدروا له[١]».

(غم) بتشديد الميم: أي حال بينكم وبين الهلال غيم رقيق، (فاقدروا) بضم الدال، وجوز كسرها: أي اقدروا له تمام العدد ثلاثين.

وقد جاء هذا الحديث بألفاظٍ عديدةٍ في الصحيحين وغيرهما.

بل جاء ما هو أصرح، فأخرج مسلم وأبو داود والترمذي من حديث النواس بن سمعان: «**قلنا: يا رسول الله، وما لبثه؟- يعني الدجال في الأرض - قال: أربعين يومًا، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم، قلنا: يا رسول الله، أرأيت اليوم الذي كالسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: لا، ولكن اقدروا له[٢]**».

قال الترمذي: حديثٌ غريبٌ حسنٌ صحيحٌ.

وأخرجه ابن ماجه من حديث النواس أيضًا، ومن حديث لأبي أمامة وفيه: «**كيف نصلي تلك الأيام القصار؟ قال: تقدرون فيها الصلاة، كما تقدرون في هذه الأيام الطوال، ثم صلُّوا[٣]**».

قال في مجمع بحار الأنوار: قوله: «ولكن اقدروا له»: أي اقدروا له قدر كل يومٍ من أيامهم المعهودة، وصلوا فيه صلاة كل يومٍ بقدر ساعاته انتهى.

فإن لم يكن هذا نصًّا في عين النازلة فالقياس عليه جليٌّ.

وقد قال الفقيه الجامع عبد الرحمن الراشدي المجاجي في شرح الأحاديث التي انتقاها ابن أبي جمرة من صحيح البخاري، على حديث النواس في طول أيام الدجال ما نصّه:

ومما يُستعان به على معرفة الأوقات في ذلك اليوم نجانا الله منه الاسطرلاب والرملية انتهى[٤].

---

(١) رواه البخاري (٢/٦٧٤)، ومسلم (٢/٧٥٩).

(٢) رواه مسلم (٤/٢٢٥٢)، وأبو داود (٤/١١٧)، والترمذي (٤/٥١٠)، وابن ماجه (٢/١٣٥٦).

(٣) رواه ابن ماجه (٢/١٣٦٢).

(٤) فائدة: قال الشيخ حسن الحمزاوي رحمه الله: وفي المواهب اللدنية أيضًا: وقد استنبط العارف بالله ابن أبي جمرة من قوله ﷺ المروي في البخاري: «ليس من بلدٍ إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة» التساوي بين مكة والمدينة حيث قال: وظاهر هذا الحديث يعطي التسوية بينهما في الفضل؛ لأن جميع الأرض يطأها الدجال إلا هذين البلدين، فدلَّ على تسويتهما في الفضل. وانظر: مشارق الأنوار في فوز أهل الاعتبار (ص٢٧٢)، بتحقيقنا.

قلت: أما بعد ظهور المجانات فلا حاجة إلى شيءٍ من ذلك، إلا أن يزعم انعدامها إذ ذاك، واستدلالي بالسُّنة في أن أهل البلغار يقدرون لاكتفاء الخصم بها.

ولكن الإمام الشافعي فعل ذلك أيضًا فإنه قال في مكة: سلوني عما شِئتم، أخبركم عنه من كتاب الله، فقيل له: ما تقول في المحرم يقتل الزنبور؟ فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ حديث سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير، عن ربعي بن خراش، عن حذيفة بن اليمان، عن النبي ﷺ أنه قال: «**اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر**[1]».

وحدَّثنا سفيان عن مسعر بن كدام عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب أنه أمر بقتل المحرم الزنبور.

وقد أفرد هذه المسألة بتصنيف العلاَّمة النظار المحقق شهاب الدين بن بهاء الدين المرجاني القزاني سماه: «ناظورة الحق في فريضة العشاء وإن لم يغب الشفق»، وهو في غاية النفاسة والإجادة في ١٨٥ صفحة، والله أعلم وأحكم.

* * *

[بيان دلالة القرآن على الاختراعات العصرية]

فإن قلت: وأين نجد في القرآن الكريم الأخبار بظهور هذه المراكب الجديدة، والوابورات العديدة، مما يخرق البحار، أو يجري فوق التراب والأحجار، أو يطير فوق عباب الجو في الليل والنهار؟

قلت: في قول الله تعالى -لما امتن الله على عباده بخلق أنواع مما يركبون-: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨].

صرَّحت الآية الكريمة خطابًا للأسلاف السابقين، بأن الله تعالى يخلق – أي من جنس ما يركب – ما لا تعلمون الآن وقت الخطاب، يخلقه سبحانه بعد، فكل ما ذُكر من الاختراعات الحافلة، والأشياء الغريبة المركوبة في هذه الدنيا العاجلة، داخل في هذه الآية الشريفة دخولاً جليًّا، لا ينكره ولو أصحاب الآراء السخيفة، فهذا إخبارٌ من الملك الديان قبل وجود الزمان والمكان، بخلقه سبحانه أشياء مما تركب في الزمان الأخير، وهو الوابور الحديدي والبخاري والهوائي، وغير ذلك مما

---

(١) رواه الترمذي (٦٠٩/٥)، والطبراني في الكبير (٧٢/٩).

لم يكن في العصر الغبير، نزلت على نبينا ﷺ بواسطة رسوله جبريل قبل الألف سنة بمائتين، وظهر مصداقها في القرن الثالث عشر، فصلَّى الله على هذا النبي الأمي الأمين.

ويمكن أن تؤخذ الإشارة إلى ما ذُكر أيضًا من قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ* وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير:١، ١٤].

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي العالية قال: ست من آيات هذه السورة في الدنيا والناس ينظرون إليها، وست في الآخرة:

(إذا الشمس كورت) إلى: (وإذا البحار سجرت)، هذه في الدنيا والناس ينظرون إليها.

و(إذا النفوس زوجت) إلى: (وإذا الجنة أزلفت) هذه في الآخرة. ونقل هذا الكواشي في تفسيره عن ابن عباس.

فإذا كان تعطيل العشار من جملة الست التي تقع في الدنيا، فاعلم أن العشار على أرجح الأقوال في الآية وأشهرها، وهو الذي اقتصر عليه البغوي، وابن جزي، والخازن، والنسفي، والمهايمي، وغيرهم.

وقال **الحافظ ابن كثير**: إنه لا يعرف عن السلف والأئمة سواه، النوق الحوامل التي أتى على حملها عشرة أشهر، واحدتها: عشراء، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع لتمام سنة.

قال مجاهد: عطِّلت تركت سُيِّبت.

وقال أُبيّ والضَّحاك: أهملها أهلها. وقال الضحاك: تُركت لا راعي لها.

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: والمعنى في هذا كله متقاربٌ، والمقصود أن العشار من الإبل وهي خيارها، اشتغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها بعدما كانوا أرغب شيء فيها، بما دهمهم من الأمر العظيم المفظع الهائل، وهو أمر القيامة وانعقاد أسبابها، ووقع مقدماتها انتهى ملخصًا.

* * *

[بيان في عزوف أهل الجزيرة عن الإبل]

ولا شكَّ أن هذا الحال قد وقع الآن عند أهل الإبل، أو قارب الوقوع في الحجاز، فإن سكة الحديد لما ظهرت في جزيرة العرب رغب الناس عن ركوب الإبل، وأعرضوا عن العناية بها كما كانوا قبل؛ لما ظهر لهم من الأمور الناشئة عن فيضان المال، وعموم التجارة وانتشارها، وغير ذلك من أشراط الساعة ومقدماتها، فتكون هذه الآية الكريمة هي أصل قوله ﷺ في ذكر أشراط الساعة: «وليتركنَّ - يعني ابن مريم على نبينا وعليه الصلاة والسلام - القِلاَص[1]»، كما في صحيح مسلم، وهي الإبل، وسيأتي كلام النووي عليه لدى الحديث الثالث من هذه الرسالة.

وفيه أن هذا الحديث شبيهٌ بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾، ومن يعلم أن كلام الله واسع المجال فقد ورد أن لكل آيةٍ ستون ألف فهم، وما خفي منها أكثر مما ظهر لكل واردٍ، خصوصًا لمن أيَّد فهمه بنصٍّ عن المنزل إليه، وتقيَّد بالصحيح الوارد، لم يستنكف عن قبول ما استنبطناه من هذه الآية الكريمة، من أن فيها الإشارة إلى الاستغناء عن الإبل بظهور سكة الحديد التي هي في أشراط الساعة من أكبر الآيات العظيمة، وسيأتي تتمة إيضاح هذا الأخذ لدى الحديث الثالث إن شاء الله، فراجعه هناك تستفد.

* * *

[بيان إحاطة القرآن بكل شيءٍ]

وقد قال الإمام علاَّمة القرن الحادي عشر الملا أبو إسحاق الكوراني: كل ما هو صحيحٌ لغةً وشرعًا فهو مرادٌ لله؛ لأن إضافة المنعوت إليه تعالى إنما تكون على الوجه الكلي المطلق الإحاطي الكامل، والقرآن ترجمان علم الله، المحيط بكل شيءٍ من الأشياء، حتى تأويلات المتأوِّلين الموافقة للشرع الصحيح في اللغة، فإذا احتملها اللفظ لغةً، ووافقت الأصول، فهي مرادة لله تعالى وهو المطلوب انتهى من خط ولده أبي طاهر.

وراجع صحيفة ١٤١ فما بعدها، وصحيفة ١٣٤ من كتاب: «السر الحقي

---

(١) رواه مسلم (١/١٣٦)، وأحمد في المسند (٢/٤٩٣).

الامتناني» تستفد.

فإن قلت: وأين وجدت الإشارة إلى ذلك في صحيح السُّنة والمدونات التي كان جمعها على الناس أعظم منة؟

* * *

[بيان في إشارات الأولياء للأسرار]

قلت: قد سَبَرْنا بحمد الله أحداث أبواب الساعة وأشراطها المعلومة المذاعة من الكتب الستة المشهورة، والمساند المأثورة، وغيرها من المجامع المذكورة، فاستخرجت لظهور سكة الحديد في الزمن الأخير أحاديث وأخبارًا، ووقفت بعد البحث والتفتيش على وصولها إلى الحجاز أيضًا في كتب السُّنة التي لا تجاري، بل قد وجدت عن أولياء هذه الأمة في هذا الباب إشارات، وعجائب إنذارات.

فقد حدَّثني الأستاذ العظيم، بركة الوقت، الشيخ والوالد أبو المكارم مولانا عبد الكبير ابن محمد الكتاني - وفي أصحابه من كتب عنه ما أذكره من قبل أن أُولد - أنه سمع من بعض الشيوخ ينقل عن الشيخ الأكبر ابن عربي الحاتمي أنه قال: ثلاثة أشياء تسهل آخر الزمان: العلم، والولاية، والحج.

قلت: أما الحج فهو بهذه الاختراعات العجيبة، والأحداث الغريبة، وأما العلم فبهذه المطبعة العجيبة الاختراع، التي أظهرت من مخبئات كتب العلم ما لم يكن أسلافنا يحملون بظهوره، بل ولا سماع اسمه، ولا تقول ينافي ذلك ما تقرر من نقص العلم في آخر الزمان، فإن المراد العلم المنتفع به، أو بالنسبة لما كان عند الأسلاف، بل نقول يكون سهلاً لمن جدَّ في طلبه، مستعينًا بكثرة مطالعته كتبه الكثيرة التي أظهرتها المطبعة، وأما الولاية فلعل ذلك من باب: «**يأتي على الناس زمانٌ من أتى فيه بعشر دينه نجا، والمتمسك بدينه كالقابض على الجمر**[1]»، والله أعلم كحديث: «**إنكم في زمانٍ من ضيع عشر هذا الأمر فقد هلك، وسيأتي زمانٌ من قبض عُشر هذا الأمر فقد نجا**[2]» انتهى.

وحديث: «**وددت أني رأيت إخواننا**[3]»، إلى أن قال: «**للواحد منهم أجر**

(١) رواه أحمد في المسند (٢/٣٩٠)، والترمذي (٤/٥٢٦)، بنحوه.

(٢) رواه الترمذي (٤/٥٣٠).

(٣) رواه الربيع في مسنده (١/٣٧)، وذكره ابن عبد البر في التمهيد (٢٠/٢٤٣).

خمسين» إلخ.

***

[بيان في وصف الكتاب وأهميته]

ويتضح ذلك كلّه بما تراه في هذه الوريقات ضمن ما تقرؤه من جلي العبارات، فهاك هذا الكتاب الذي إن رجع به الرَّاحل بعد سنة كاملة، وآب به الرَّاغب الشَّيق الطالب بعد الدَّوران على كلِّ عالمٍ وعالمةٍ، عُدَّ ممن صَادَ العلم، وحصل درره، وانتقى أطايبه وغرره، موضعه أنفس الموضوعات، وموقعه من المحبِّ في جانب سيدنا محمد ﷺ من أحب الموصلات، إذا حوى أمهات ما يقصد بالتأليف، والجمع والتصنيف.

فقد قالوا: الأقسام السَّبعة التي لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها هي إما شيء لم يسبق إليه يخترعه، أو شيء ناقص يتممه، أو شيء مغلق يشرحه، أو شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيءٍ من معانيه، أو شيء مفرَّق يجمعه، أو شيء مختلط يرتبه، أو شيء أخطأ فيه مصنفه فيصلحه انتهى.

وكل ذلك داخلٌ في قوله ﷺ: «أو علمٌ ينتفع به[1]»، ولا شكَّ أن هذا المؤلف مخترع في بابه، تمم نواقص عند طلابه، وجمع ما كان مفرقًا في كتب السُّنة، واحد في الترتيب والسبك، فهو في هذا العصر من كبار المعجزات، وأعظم منه.

وقد رتبته على مقدمة ذكرت فيها كلمات مختصرة، وعبارات ليست بمبعثرة في عمله ﷺ بما كان أو يكون، مما يتعلق بالكون من الأموال والشئون، وبابين:

أولهما: في الأحاديث الصحيحة، والأخبار الصريحة، المؤذنة بظهور سكة الحديد، جمعتها بعد الجهد الجهيد.

وثانيهما: فيما صرَّح فيه بوصولها إلى أرض العرب، بل ومدينة الرسول التي هي مأوى الرغب.

وخاتمة: في بعض أشعار فائقة، ودرر يواقيت رائقة، لها بما سبق مناسبة، وأعظم تعلق ومقاربة.

وسميته: «اليواقيت الثمينة في الأحاديث القاضية بظهور سكة الحديد ووصولها

---

(١) رواه مسلم (١٢٥٥/٣)، وأبو داود (١١٧/٣)، وأحمد (٣٧٢/٢).

إلى المدينة».

وأنا أرى كل قارئ لخطبة هذه الرسالة يقضي بالعجب، مما غمره من الاستغراب وهاله، ويظن أن ما سيقف عليه ليس بنصٍّ صريحٍ؛ لغرابة هذه المسألة عن آذان الناس، وكونها مما لا يحتمل الإبطال أو التصحيح، ولكن إذا طالع داخلها، وعلم أوائلها من أواخرها، علم أنها نفحة أحمدية، ومعجزة محمدية، فما لي فيها جهد ولا طاقة، وإنما همة من عن السكة الحديدية أخبر، أودعتني مثل هذه الطاقة.

فأسأل الله بجاه نبيه الأعظم، ورسوله الأكرم، أن يلهمني الإصابة والعون والسداد والتوفيق والصون، وهو المجيب كل من سأله حاجته، خصوصًا من إليه توسَّل بأعظم أحبابه، فجديرٌ أن يستجيب رغبته، فأقول وبالله ثم برسوله أَصُول:

مقدمة في علمه ﷺ
بأخبار السابقين وإعلامه بوقائع اللاحقين

ليعلم أن المغيبات بأسرها، والمعلومات بجملتها لله سبحانه، العلم الأولي، السابق الأزلي، الاستبدادي، ولمن شاء سبحانه من خاص عبيده، العلم الاستفاضي الاستمدادي، قال الله سبحانه: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن:٢٦، ٢٧].

قال القرطبي: لما تمدح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه، كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحدٌ سواه، ثم استثنى من ارتضى من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي لهم، ودلالة صادقة على نبوءتهم انتهى.

وقال الإمام الأثري محمد بن علي الشوكاني: قد تقرر بالدليل القرآني أن الله يظهر من ارتضى من رسله على ما شاء من غيبه، فهل للرسول الذي أظهره الله على ما شاء من غيبه أن يخبر به بعض أمته؟

قلت: نعم، ولا مانع من ذلك، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ من هذا ما لا يخفى على عارف بالسنة المطهَّرة، فمن ذلك ما صحَّ أنه قام مقامًا أخبر فيه بما يكون إلى يوم القيامة، وما ترك شيئًا مما يتعلق بالفتن ونحوها، حفظ ذلك من حفظه، ونسيه من نسيه، ثم ذكر جزئيات مما يأتي.

وقال: ونحو هذا مما يكثر تعداده، ولو جمع لجاء منه مُصنَّف مستقل، وإذا تقرر

هذا فلا مانع من أن يختص بعض صلحاء هذه الأمة بشيءٍ من أخبار الغيب التي أظهرها الله لرسوله، وأظهرها رسوله لبعض أمته، وأظهرها هذا البعض من الأمة لمن بعدهم، فتكون كرامات الصالحين من هذا القبيل، والكل من الفيض الربَّاني بواسطة الجناب النبوي انتهى بواسطة فتح البيان على هذه الآية.

وفي معالم التنزيل لإمام السُّنة الحسين بن مسعود البغوي على قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ*عَلَّمَ الْقُرْآنَ *خَلَقَ الْإِنْسَانَ*عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن:١: ٤] ما نصُّه:

قال ابن كيسان: (خلق الإنسان): يعني محمدًا، (علمه البيان): بيان ما كان وما يكون؛ لأنه كان يبين عن الأولين والآخرين، وعن يوم الدين انتهى ونحوه في تفسير الخازن وغيره.

* * *

[تواتر الأخبار في اطِّلاع النبي ﷺ على المغيبات]

وقال الإمام القاضي أبو الفضل عياض في الشفا: فصل:

ومن ذلك ما اطَّلع عليه من الغيوب، وما كان وما يكون، والأحاديث في هذا الباب بحرٌ لا يُدرك قعره، ولا ينزف غمره، وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومة على القطع، الواصلة إلينا أخبارها على التواتر لكثرة رواتها، واتفاق معانيها على الاطلاع على الغيب.

حدَّثنا الإمام أبو بكر محمد بن الوليد الفهري إجازة وقراءة على غيره، قال أبو بكر: حدَّثنا أبو علي التستري، قال: حدَّثنا أبو عمر الهاشمي، حدَّثنا اللؤلؤي، حدَّثنا أبو داود، حدَّثنا عثمان بن أبي شيبة، حدَّثنا جرير عن الأعمش، عن أبي وائل، عن حذيفة قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا، فما ترك شيئًا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدثه، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابه هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأعرفه، فأذكر كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه، ثم قال: ما أدري أنسي أصحابي أم تناسوه، والله ما ترك رسول الله ﷺ من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعدًا إلا قد سماه باسمه واسم أبيه وقبيلته انتهى.

* * *

[الروايات الدالة على علم النبي ﷺ بما يكون]

قلت: قول سيدنا حذيفة هذا روى صدره الشَّيخان البخاري في باب: وكان أمر الله قدرًا مقدورًا من كتاب «القَدَر»، ومسلم في كتاب «الفتن» إلى قوله: عرفه من عرفه، وإنما أخرجه عياض من طريق أبي داود لتلك الزيادة.

وقوله: (ما أدري أنسي أصحابي)، ظاهر سياق عياض أنَّه من تتمة الحديث الأول بإسناده، وليس كذلك، وإنما أخرجه أبو داود منفصلاً بسندٍ آخرٍ من طريق قبيصة بن ذؤيب عن أبيه عن حذيفة، نبَّه عليه ابن حجر في كتاب القدر من الفتح، ثم الأسيوطي في المناهل.

وفي آخر صحيح مسلم لدى كتاب «الفتن»: حدَّثني حرملة بن يحيى التجيبي أنا ابن وهب أخبرني يونس عن ابن شهاب أن أبا إدريس الخولاني كان يقول: قال حذيفة بن اليمان: والله إني لأعلم الناس بكل فتنةٍ هي كائنة فيما بيني وبين الساعة، إلا أن يكون رسول الله ﷺ أسرَّ إليَّ في ذلك شيئًا لم يحدثه غيري.

ثم قال مسلم بعد أيضًا: حدَّثني أبو بكر بن نافع حدَّثنا غُنْدَر ثنا شعبة عن عدي ابن ثابت، عن عبد الله بن يزيد، عن حذيفة أنه قال: أخبرني رسول الله ﷺ بما هو كائنٌ إلى أن تقوم الساعة، فما منه شيء إلا وقد سألته، إلا أني لم أسأله ما يخرج أهل المدينة من المدينة.

قال الحافظ الأسيوطي في مرقاة الصُّعود على هذا الحديث:

من غريب ما وقع من بعض أهل العصر، أني لما رويت الأحاديث في نهي العلماء عن المجيء للسلاطين.

قال: وهل كان في زمنه سلاطين حتى ينهى عن التردد إليهم، وما علم المسكين أنه ﷺ أعلم بالوحي بكل ما يجئ بعده إلى قيام الساعة، وأعلم به الصحابة كما في هذا الحديث انتهى.

وفي مسلم أيضًا: أنا يعقوب بن إبراهيم الدَّورقي عن أبي عاصم، أنا عزرة بن ثابت، أنا علباء بن أحمر، حدَّثني أبو زيد – يعني عمرو بن أخطب – قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ الفجر، فصعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظُّهر، فنزل وصلّى، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلّى، ثم صعد المنبر، فخطبنا

حتى غربت الشَّمس، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن، فَأَعْلَمُنا أحفظنا[١].

وقد أخرجه أيضًا أحمد مطولاً ومختصرًا، وبوب عليه الترمذي في كتاب الفتن من جامعة فقال: باب ما أخبر به النبي ﷺ أصحابه بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة.

ثم قال: حدَّثنا عمران بن موسى القزاز، ثنا حماد بن زيد، نا علي بن زيد عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ صلاة العصر بنهار، ثم قام خطيبًا، فلم يدع شيئًا يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه[٢].

قال الترمذي: حديثٌ حسنٌ. وفي نسخةٍ أخرى: صحيحٌ.

قال: وفي الباب عن المغيرة بن شعبة، وأبي زيد بن أخطب، وحذيفة، وأبي مريم، ذكروا أن النبي ﷺ حدثهم بما هو كائنٌ إلى أن تقوم الساعة انتهى.

قلت: وكأنه لم يقع له حديث عمر، وهو في صحيح البخاري في أول كتاب «**بدء الخلق**» بلفظ: روى عيسى عن رقبة، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: سمعت عمر يقول: قام رسول الله ﷺ فينا مقامًا فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم، وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه، ونسيه من نسيه.

* * *

[بيان إخباره بأحوال المخلوقات]

قال الحافظ في الفتح[٣]: دلَّ ذلك على أنه أخبر في المجلس بجميع أحوال المخلوقات، منذ ابتدأت إلى أن تفنى، إلى أن تُبعث، فشمل ذلك الإخبار عن المبدأ والمعاش والمعاد، وفي تيسير إيراد ذلك كله في مجلسٍ واحدٍ من خوارق العادة أمر عظيم، ويقرب ذلك مع كونه معجزة لا مرية في كثرتها، أنه ﷺ أُعطي جوامع الكلم.

ومثل هذا من جهة أخرى ما رواه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال للذي في يده اليمنى:

---

(١) رواه مسلم (٤/٢٢١٧).

(٢) رواه الترمذي (٤/٤٨٣)، وابن المبارك في الزهد (١/٥٥٥).

(٣) انظر: فتح الباري (٦/٣٤٩).

«هذا كتابٌ من ربِّ العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم»، ثم قال للذي في شماله: «مثله في أهل النار[1]»، وقال في آخر الحديث: فقال: بيده فنبذهما.

إسناده حسنٌ، وظاهر قوله (فنبذهما) بعد قوله: (وفي يده كتابان) أنهما كانا مرئيين لهم انتهى كلام الحافظ ملخصًا.

وفي آخر صحيح مسلم لدى كتاب «الفتن» من حديث ابن مسعود في أمر الدجال: فيبعثون عشرة فوارس طليعة، قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم، وألوان خيولهم، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذٍ[2]».

* * *

[بيان معرفته ﷺ بالمغيبات الدقيقة]

قال الإمام المحدث شهاب الدين أحمد بن الخطيب القسطلاني في المواهب اللدنية عقب سياقه ما نصُّه:

فوضح من هذا الخبر وغيره مما سيأتي من الأخبار، وسنح من خواطر الأبرار والأخيار، أنه ﷺ عرفهم بما يقع في حياته وبعد موته، وما قد انحتم وقوعه فلا سبيل إلى فوته[3].

وقال أبو ذر: «لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يحرك طائر جناحه في السماء إلا ذكرنا منه علمًا[4]».

ولا شكَّ أن الله تعالى قد أطلعه على أزيد من ذلك، وألقى عليه علم الأولين والآخرين، وأما علم عوارف المعارف الإلهية فتلك لا يتناهى عددها، وإليه ﷺ ينتهي مددها انتهى منها.

قلت: وقول أبي ذر هذا أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والطبراني وغيرهما بإسنادٍ صحيحٍ، وأخرجه أبو يعلى، والطبراني، وابن منيع عن أبي الدرداء أيضًا.

---

(١) رواه الترمذي (٤/٤٤٩)، وأحمد (٢/١٦٧).

(٢) رواه مسلم (٤/٢٢٢٣)، وأحمد (١/٣٨٤).

(٣) قال الشيخ الحمزاوي في المشارق: والتحقيق أنه ﷺ لم يفارق الدنيا حتى أعلمه الله بسائر المغيبات التي يليق علمها بالبشر.

(٤) رواه أحمد (٥/١٦٢)، وابن سعد في الطبقات (٢/٣٥٤).

وانظر لِمَ أغفل عياض والقسطلاني في هذا الباب الاستشهاد بحديث عمر، وأبي سعيد الخدري وغيرهما مما سبق، كما أغفلا أيضًا الاستشهاد بحديث ابن عباس عند الترمذي، وهو ما أخرجه في كتاب التفسير من جامعه في سورة (ص).

قال: حدَّثنا سلمة بن شبيب وعبد بن حميد قالا: حدَّثنا عبد الرزاق عن معمر، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**أتاني الليلة ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة، قال: أحسبه قال: في المنام، قال: كذا في الحديث، فقال: يا محمد، هل تدري فيما يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: لا أعلم، قال: فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي - أو قال: في نحري - فعلمت ما في السّموات وما في الأرض**[١]».

ثم أخرجه الترمذي من وجهٍ آخر فقال: حدَّثنا محمد بن بشار، ثنا معاذ بن هشام، ثنا أبي عن قتادة، عن أبي قلابة، عن خالد بن اللّجلاج، عن ابن عباس وفيه: «**فعلمت ما بين المشرق والمغرب**[٢]». وقال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ من هذا الوجه.

ثم أخرجه من طريقٍ آخر فقال: حدَّثنا محمد بن بشار ثنا معاذ بن هانئ، ثنا أبو هانئ اليشكري، ثنا جهضم بن عبد الله عن يحيى بن أبي كثير، عن زيد بن سلام، عن أبي سلام، عن عبد الرحمن بن عائش الحضرمي أنه حدثه عن مالك بن يخامر السّكسكي عن معاذ بن جبل وفيه: «**فتجلّى لي كل شيءٍ**[٣]».

وقال الترمذي عقب إخراجه: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فقال: هذا صحيحٌ.

راجع بقية الكلام فيه، وهو محذوفٌ من النسخ المطبوعة بالهند، لكنه مثبتٌ في نسخ ثلاثة دونها بخطوط من يعتمد ضبطه.

قال الحافظ جلال الدِّين الأسيوطي في حواشي الترمذي:

قوله: «فعلمت ما في السموات وما في الأرض» يدل على أنّ وصول ذلك

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٦/٥)، وأحمد (٣٦٨/١).

(٢) رواه الترمذي (٣٦٧/٥).

(٣) رواه الترمذي (٣٦٨/٥).

الفيض صار سببًا لعلمه[1].

وزاد في بعض طرقه: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام:٧٥]، استشهادًا إلى أنه تعالى كما أرى لإبراهيم ذلك وكشفه، فتح عليَّ أبواب الغيوب حتى علمت ما بينهما ذاتًا وصفات وظواهر ومغيبات انتهى.

وفي أبي داود وجامع الترمذي أيضًا وغيره من حديث ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها[2]».

قال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ، وهو في مسلم[3].

قال الأسيوطي في «قوت المغتذي»: زوى كرمي: أي جمعها وطواها فرأيت مشارقها إلخ.

هذا أصل طيِّ المسافة، ورفع الحجاب الذي هو أحد كرامات الأولياء انتهى.

* * *

[رفع الدنيا للنبي ﷺ]

وفي حديث ابن عمر عند الطبراني قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله قد رفع لي

---

(١) قال الشيخ محمد بن جعفر الكتاني: قال ابن حجر الهيتمي في شرح الهمزية في معنى: فعلمت ما في السماوات والأرض أي: جميع الكائنات التي في السماوات بل وما فوقها كما يستفاد من قصة المعراج، والأرض هي بمعنى الجنس أي: وجميع ما في الأراضين السبع بل وما تحتها كما أفاده إخباره ﷺ عن الثور والحوت اللذين عليهما الأرضون كلها انتهى على نقل صاحب المرقاة، وزاد ويمكن أن يراد بالسماوات الجهة العليا والأرض الجهة السفلى فيشمل الجميع ثم ذكر أنه لابد من التقييد في هذا وله المراد ما أعلمه الله به فما فيهما قال: وذكر يصح إطلاق الجميع كما هو الظاهر انتهى.
قلت: جميع من أدلته التقييد في التخصيص واللفظ يفيد العموم وهناك ما يعضضه ويدل على بقائه على عمومه كرواية: فتجلى لي كل شيء وعرفت ورواية وعلمني كل شيء ولا مانع من عمومه لا شرعاً ولا عقلاً مجرد استبعاد العقول القاصرة المحصورة لذلك لا يفيد في هذا الباب كما هو واضح لأولي الألباب، والله أعلم. وانظر: جلاء القلوب (٢٥٠/١) بتحقيقنا.

(٢) رواه مسلم (٢٢١٥/٤)، والترمذي (٤٧٢/٤)، وأحمد (١٢٣/٤).

(٣) قال الشيخ محمد بن جعفر الكتاني: وقد ذكره السيوطي في جامعه الصغير من عنده فقال شارحه المناوي في «فيض القدير» ما نصه: وقد تجلى له ﷺ الكون كله وزويت له الأرض بأسرها فأري مشارق الأرض ومغاربها، وكل ذلك عند اندراج المسافات في حقه، انتهى.

الدنيا، فأنا أنظر إليها وإلى ما هو كائنٌ فيها إلى يوم القيامة، كما أنظر إلى كفي هذا جليانًا، جلاه الله لي كما جلاه للنبيين من قبلي[1]».

قوله: (جليانًا) بتحريك الوسط، مصدر، كنزوان وخفقان يعني انكشافًا انتهى.

***

[المنارة البيضاء]

ولما ذكر ابن ماجه في سننه حديث نزول عيسى ﷺ عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، كتب عليه الإمام المحدث الأثري أبو الحسن محمد بن عبد الهادي السِّندي في حواشيها أثر نقله عن ابن كثير، أنّ هذه المنارة بُنيت في زمانه سنة إحدى وأربعين وسبعمائة من حجارة بيض، ولعلَّ هذا يكون من دلائل النبوة الظاهرة نقل ما نصَّه:

قال السّيوطي: هو من الدّلائل بلا ريبٍ، فإنّ النبي ﷺ أوحي إليه بجميع ما يحدث مما لم يكن في زمنه، وقد رويت مرة الحديث الصحيح وهو قوله ﷺ: «**إنّ الله يبعث على رأس كل مائة سنة مَنْ يجدِّد لهذه الأمة أمر دينها**[2]».

فبلغني عن بعض من لا علم عنده أنه أنكر ذلك وقال: ما كان التاريخ في زمن رسول الله ﷺ حتى يقول على رأس كل مائة، وإنما حدث التاريخ بعده، فقلت: إنه ﷺ علم بجميع ما يحدث بعده، وعلّق أمورًا كثيرة على ما علم أنه سيحدث بعده، وإن لم يكن موجودًا في وقته ﷺ انتهى من حاشية السِّندي الحنفي.

***

[بيان النزاع في إحاطة النبي ﷺ بالخمس]

قلت: وإطلاق أمثال هذه الأحاديث هو الذي جرَّأ كثيرًا من المتأخرين على الجزم بأنه ﷺ اطَّلع على جميع الحوادث، حتى على الخمس التي تضمنها قوله سبحانه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ**﴾ [القمان:٣٤]، وقد كان وقع نزاع بين عالمي عصرهما ونادرتي قطرهما العلاَّمة النّظار أبي علي الحسن بن

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٦/١٠١).

(٢) رواه أبو داود (٤/١٠٩)، والطبراني في الأوسط (٦/٣٢٤)، والحاكم في المستدرك (٤/٥٦٨).

مسعود اليوسيّ المتوفى سنة اثنين بعد مائة وألف، والعلاَّمة المحدث المسند قاضي سجلماسة أبي مروان عبد الملك بن محمد التجموعتي المتوفى سنة ثمان عشرة بعد مائة وألف، كلاهما من أئمة المغرب، يجزم الأول بأنه ﷺ كان يعلم كثيرًا من الغيوب لا على وجه الإحاطة، كما أنه لم يكن يعلم كل شيءٍ حتى الخمس، وجزم الثاني بأنه ﷺ كان يعلم كل شيءٍ حتى الخمس، مستدلاً ببعض ما سبق من الآثار وصحيح الأخبار وغيرها في رسالةٍ سمَّاها: «**ملاك الطَّلب وجواب أستاذ حلب**»، عنى به جدنا من قبل الأم العارف بالله، بوصيري عصره، أبو العباس أحمد بن عبد الحيّ الحلبي الشافعي، نزيل فاس ودفينها؛ لأنّه هو الذي سأله، وما رأينا إلا من رجح كلام أبي مروان، وقد كان أعلم بالحديث وطرائقه من اليوسيّ، ورحل فيه إلى الحجاز، واستجاز أهله واستجازوه، وله في ذلك مدون مفيد.

وقد وجدت بخط بعض ثقات المتأخرين ما يقضي بأن اليوسيّ رجع إلى قول التجموعتي في هذه المسألة، فإنه قال: إنه ﷺ ما مات حتى أعلمه الله بوقت مجيء الساعة، وبسائر المغيّبات، وبلية القدر، وبالرُّوح، وأحاط علمه بها أحاطة لا كإحاطة علم الله، وقال: انظر حواشي اليوسيّ على الكبرى.

قلت: وقد طالعت حواشي اليوسي كلها، فم أجد فيها المحال عليه، والتجموعتي مسبوقٌ بالتأليف في هذا الموضوع.

ولأحد أفراد علماء القرن العاشر وهو الإمام السيد منصور البغدادي مؤلف جليل سماه: «إقامة شواهد المنقول والمعقول على إحاطة علم نبينا ﷺ الرسول».

قال محدّث اليمن ومسنده، الوجيه عبد الرحمن بن سليمان الأهدل في ثبت «النفس اليماني»، وهي رسالةٌ عظيمةٌ فيها بدائع التّدقيق والفوائد انتهى.

كما وقع الهرج في هذه المسألة أيضًا في الحجاز والهند في هذه الخمس، وللفريقين مصنفات وصلتنا بعضها في هذا الحين، وقد أوقفني العلاَّمة -أحد من وُفِّقوا لكثرة التصنيف في هذا القرن - الشيخ أحمد رضا علي خان البريلوي الحنفي الهندي على رسالةٍ نحا فيها نحو التجموعتي، ورأيته يؤلف أخرى، وقد كتب أسماء رسائله الثلاثة في هذه المسألة ضمن أسماء مؤلفاته التي بغلت وقت لُقيّ به إلى أزيد من مائتين، واسم الرّسالة الأولى: «اللؤلؤ المكنون في علم البشير ما كان وما يكون»، والثانية «مالئ الجيب بعلوم الغيب»، والثالث: «إنباء المصطفى بما أسرّ

وأخفى»، ولم يتيسر لي إلى الآن مطالعة واحدة من الثلاثة.

ونحن نشير إلى كليمات تتعلق بهذه المسألة نذكرها على وجه الاستطراد فنقول:

قال محدث وقته العلاَّمة الصّدر عبد الرءوف المناوي في شرحه الكبير على الجامع الصغير لدى حديث: «**خمس لا يعلمهن إلا الله**[١]»، ﴿**إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ**﴾ إلى آخر الآية ما نصّه: (خمس لا يعلمهن إلا الله) على وجه الإحاطة والشمول كليًّا وجزئيًّا، فلا ينافيه إطلاع الله بعض خواصه على كثيرٍ من المغيبات، حتى من هذه الخمس؛ لأنها جزئيات معدودة، وإنكار المعتزلة ذلك مكابرة انتهى.

وفي شرح الجوهرة لعلاَّمة عصره ومصره أبي إسحاق إبراهيم اللّقاني المصري المسمى: «بهداية المريد بجوهرة التوحيد» ما نصّه:

والحق كما قاله جمعٌ، أنّ الله لم يقبضه ﷺ حتى أطلعه على كل ما أبهمه عنه، إلا أنّه أمره بكتم بعض وإعلام بعض انتهى منه.

ونحوه في شرح الأربعين النووية للعلاَّمة شارح خليل أبي إسحاق إبراهيم الشَّبرخيتي الأزهري المالكي، وحواشي شرح ابن حجر عليها أيضًا للبدر حسن المدابغي الشافعي، وشرح أبي عبد الله محمد التاودي بن الطالب بن سودة، وشرح ولد القاضي أبي العباس أحمد، على العشرة الأولى منها وغيرها.

وفي شرح الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن عمر الروضي المالكي- أحد تلامذة علي الأجهوري – على أنموذج اللبيب للأسيوطي ما نصّه:

الصحيح كما قاله المحققون أنه أُوتي علم كل شيءٍ حتى الخمسة، وحتى علم الروح، وأُمر بكتم ذلك انتهى.

وفي شرح منظومة الهلالي في الأسماء الحسنى لتلميذ تلامذته العلاَّمة المطلع أبي عبد الله محمد الحبيب بن عبد القادر الحسني السِّجلماسي ما نصّه:

وها هنا دقيقة، وهي يجب علينا أن نعتقد أنه ﷺ لم يخرج من الدنيا حتى حصل له العلم بجميع المعلومات؛ للحديث الصحيح:

«**أُوتيت علم كل شيءٍ، وتجلّى لي كل شيءٍ**[٢]».

---

(١) رواه البخاري (٣٥١/١)، ومسلم (٣٩/١).

(١) رواه الطبراني (٣٦٠/١٢) (١٣٣٤٤)، بنحوه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦٣/٨): =

وما ورد مما يخالفه منسوخٌ بهذا، وبه تظهر مزيته ﷺ، وفضيلته العلمية على غيره من سائر الأنبياء بعد اشتراكهم في علم الغيب المستثنى لهم في آية:

﴿فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا*إِلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن:٢٦].

وقال فيها بعض المفسرين: يريد أو ولي، ففيه حذفٌ؛ لأن الولي وارثٌ لعلم النبوة انتهى.

وعلى ما مرَّ اقتصر كابن العربي، وابن أبي جمرة، والشّهاب، والسّيوطي، واليفرني، وأبي مروان السّجلماسي، وألّف في المسألة تأليفًا مفيدًا لما وقع بينه وبين اليوسي منازعة في المسألة، حتى ألّف اليوسي أيضًا فيها تأليفًا مضمنه:

أنّ اعتقادنا بعلم النبي ﷺ لكل شيءٍ يوجب مساواته مع الحق سبحانه في وصف العلم، وردَّ عليه أبو مروان بوجود الفارق، وهو قدم العلم الإلهي، وحدوث العلم النبوي، وبأن الحديث الذي هو: «أوتيت علم كل شيءٍ» عام، فيبقى على عمومه، وصرفه إلى المجاز خلاف الأصل، وهو متأخر، فيكون ناسخًا لكل ما يوهم خلافه إلخ كلامه[1].

رجاله رجال الصحيح.

(١) عقب الشيخ محمد بن جعفر الكتاني بقوله: وأقول قوله: يجب علينا أن نعتقده لا مستند له فيه بل العقيدة الصحيحة التي عليها سلف الأمة وخلفها وهي عقيدة أهل الله تعالى بخلافه وهي أن العلم بجميع المعلومات قديمها وحديثها واجبها وجائزها ومستحيلها إنما هو لله وحده وليس جميعه لأحد سواه لا من نبي ولا من غيره والحديث الذي ذكره وهو قوله: «أوتيت علم كل شيء».

لم نقف عليه إلا بهذا اللفظ، والمشهور إنما هو حديث: «أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس».

فعليه إثبات من خرجه أو ذكره من الأئمة الحفاظ إلا إن في معناه حديث: «فتجلى لي كل شيء».وحديث: «فعلمني كل شيء». وحديث: «مَا مِنْ شَيْءٍ لَمْ أَكُنْ أُرِيتُهُ إِلاَّ رَأَيْتُهُ في مَقَامِي هذا».

والعموم فيها محمول على الكوائن خاصة لأدلة أخرى تقدمت فإن حملنا اللفظ فيها على إطلاقه وقلنا بدخول الذات العلية فيه فعلى حسب ما يمكن ويليق بالعبد من غير إحاطة ولا معرفة بالكنه تعالى سبحانه عن أن يعرفه غيره أو يحيط به مخلوق كائنا من كان.

وقوله وما ورد مما يخالفه منسوخ بهذا فيه أن مثل هذا لا يسمى نسخاً في الاصطلاح وإنما يقال فيه لم يكن عنده أولاً العلم بكذا ثم أعلمه الله به وفيه أيضاً أن العموم فيما زعمه ناسخا

مراد في شيء خاص وهو الكوائن وعلى تسليم شموله للذات العلية نقول: لا يلزم من رؤيتها والعلم بها معرفة كنهها، والإحاطة بها لأنها رؤية إجمالية وعلم إجمالي لا تفصيلي خلافاً لما زعمه.

وقوله وبهذا تظهر مزيته ﷺ وفضيلته العلمية على غيره من سائر الأنبياء يقال عليه مزيته عليهم وفضيلته ظاهرة بدون هذه الدعوى لأنه أوتي علومهم كلها وزاد عليهم بأضعاف مضاعفة مما لا يعلمه إلا الله تعالى.

وقوله وعلى ما مر اقتصر ابن العربي أي أراد به المعافري الفقيه فبعيد ذلك من مرامه ولم أطلع له الآن على شيء في هذه المسألة وإن أراد به الحاتمي الصوفي فهو وإن كان بعض كلامه يوهم ذلك فبعضه يصرح بخلافه كما سبق.

وقوله وابن أبي جمرة في «شرحه لصحيح البخاري» قد راجعت شرحه المذكور فلم أر فيه شيئاً مما نسبه له بل وجدت فيه ما يخالفه في الكلام على حديث أسماء في صلاة الكسوف لدى قوله ﷺ فيه: «مَا مِنْ شَيءٍ لَمْ أَكُنْ أُرِيتُهُ إلاَّ رَأَيْتُهُ في مَقَامِي هذا حتى الْجَنَّةَ وَالنَّار».

ونصه: ويرد على هذا السؤال وهو أن يقال ما المراد بقوله عليه الصلاة والسلام: ما من شيء لم أكن أريته إلا رأيته. هل المراد به جميع الغيوب أو المراد به ما يحتاج به الإخبار إلى أمته وما يخصه عليه الصلاة والسلام في ذاته المكرمة.

والجواب أن لفظ الحديث محتمل للوجهين معا والظاهر منهما الوجه الأخير وهو أن يكون المراد به ما يحتاج به الإخبار إلى أمته وما يخصه عليه الصلاة والسلام في ذاته المكرمة أو مما أكرمه الله بالاطلاع عليه والأول ممنوع يدل على ذلك الكتاب والسنة.

أما الكتاب فقوله تعالى ﴿قُل لا يَعْلَمُ مَن في السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

وأما الحديث فقوله ﷺ «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ولا يعلم ما في غد إلا الله ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله».

ولأنه لا يمكن أن يحمل على جميع الغيوب لأن ذلك يؤدي إلى استواء الخالق والمخلوق وهو مستحيل عقلاً وقد قال عز وجل في كتابه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ في شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] والأشياء منها ما وقع قبل خلق بني آدم ومنها ما يقع بعد موتهم فكان ذلك مستحيلا من طريق العقل والنقل انتهى منه بلفظه.

فانظر حكمه بمنع حمل الحديث على جميع الغيوب واستدلاله على ذلك بالكتاب والسنة وقوله إن ذلك يؤدي إلى استواء الخالق والمخلوق وهو مستحيل عقلاً كاستحالته من طريق النقل فإنه مناقض لما نسبه له صاحب هذا الكلام.

وقد فهم ابن أبي جمرة من الآية الأولى في كلامه أن المراد بالغيب فيها جميعه وأنه هو المختص به تعالى دون البعض فإنه قد يعلمه غيره من نبي أو ولي أو ملك بإعلامه وهذا

قال اليفرني فيما وقفت عليه بخطه بطرَّة تأليف أبي مروان: والحق ما قاله أبو مروان، فالعجب من اليوسي كيف خفي عليه هذا مع شهرته، والكمال لله(١).

وجه صحيح فيها وفيها وجه آخر وهو أنه تعالى هو العالم بالغيب استقلالاً بذاته من ذاته وغيره إذا علمه فإنما يعلمه بإعلام الله لا من نفسه، وفهم أيضاً من الحصر المذكور في الحديث أنه حقيقي بناء على مذهب الجمهور من أن هذه الخمس لا يعلمها إلا الله وحده والمحققون على خلافه وأنه إضافي راجع ما تقدم. وانظر: جلاء القلوب (٤١٦/١) بتحقيقنا.

(١) قال الشيخ محمد بن جعفر الكتاني قدس الله سره: اعلم هداك الله، ولكل رشد وفلاح أهَّلك وأرشدك أنه لا خلاف بين أهل العلم كلهم في أنه عليه الصلاة والسلام كان معلماً من قبل الله تعالى بالمغيبات الكثيرة التي لا تنحصر كثرة وعدداً، ولا ينقضي ظهورها مدي الدهور أبداً، وفي أنه أوتي من علوم الكوائن الماضية والحاضرة والمستقبلة ما تعجز عنه عقول البشر، ولم يؤته نبي ولا رسول قبله، ووقع نزاع عظيم وخبط شديد وهيم بين المتأخرين من المشارقة والمغاربة في أن علمه ﷺ كان محيطاً بالأشياء كلها حتى الخمس والروح، وما هو في معناهما، أو غير محيط بها، والإحاطة بالأشياء جميعها إنما هي لله تعالى وحده، أو محيطاً بها ولكن لا كإحاطة علم الله، بل إحاطة ما لا تخلو عن شيء مخصوص منها، استأثر الله به، أو متوقف فيه فلا يقال فيه: إنه محيط ولا غير محيط لتعارض الأدلة، وعدم وجود قاطع، أقوال أربعة:

القول الأول: في بيان إحاطة الذات المحمدية بالعلوم الجديدة الكونية، فممن أفتى بالأول - وهو القول بالإحاطة - من المغاربة قاضي سجلماسة وأعلمها في وقته الفقيه العلامة المشارك المحقق أبو مروان عبد الملك بن محمد السجلماسي التاجموعتي المتوفى في صفر سنة ثمان عشرة ومائة وألف، لما سأله عن هذه المسألة جدنا للأم المحب في الجانب النبوي المداح له العلامة المؤلف الناظم الناثر الصوفي الولي الصالح أبو العباس أحمد بن عبد الحي الحلبي الشافعي نزيل فاس ودفينها، وقال في جوابه له: إن النبي ﷺ لم يفارق الدنيا حتى علم كل شيء. ولما بلغ جوابه هذا لعلماء فاس وما هو في حكمها أنكروه، وبالغوا في التشنيع عليه حتى إن بعضهم نسب معتقده هذا إلى الكفر، فلما بلغه هذا الإنكار رد عليهم أبلغ رد في جواب له كتبه في هذه المسألة، وقال فيه: وإني لأفضي العجب من المنكرين لذلك مع ورود الأحاديث الصحيحة به، ففي كبير الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما عنه ﷺ قال: «**أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس**». وعن عبد الله بن مسعود ﷺ مثله. وقد تقرر أن الاستثناء معيار العموم، وعليه فعلمه ﷺ محيط بكل شيء سوى الخمس، والخمس قد علمها ﷺ بعد على ما عليه المحققون إذ هو ﷺ من لدن بعثه الله إلى أن قبضه في الترقيات والتجليات فبحسبها ورد: ما المسئول عنها بأعلم من السائل. لا تفضلوا بين الأنبياء. ثم ورد بعد أنه علم الخمس، وأنه سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائه. وقال الحافظ السيوطي: أوتي ﷺ علم كل شيء إلا

الخمس، وقيل: إنه أوتيها أيضاً وأمر بكتمها، والخلاف جارٍ في الروح.
وإذا تقرر هذا علم أنه ﷺ أحاط بكل شيء علماً فضلاً من الله تعالى فما يقال لفضل الله ذا فكم؟، وقال البوصيري:

دع ما ادعته النصاري في نبيهم   واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

وفي الصحيح: أنه ﷺ قال: «سلوني عما شئتم». ولا شك أنه كالنص في التحدي بهذه الخصوصية، فتلحق بالمعجزات، وما في الكتاب العزيز من الآي الدالة على أنه لا يعلم الغيب إلا الله محمول على العلم بغير واسطة، وأما الاطلاع على ذلك بإعلام الله فأمر متحقق لقوله: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أحداً * إلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]

وفي الطبراني عن ابن عمر مرفوعاً: «إن الله قد رفع لي الدنيا، فأنا أنظر إليها وإلى ما هو كائن فيها إلى يوم القيامة، كأنما أنظر إلى كفي هذه».
والقول الفصل: أنه ﷺ أوتي علم كل شيء قبل أن يفارق الدنيا، وقد اتضح أن المنكِر إما جاهل فيعلم، أو ملحد فيؤثم، ثم ليت شعري ما وجه الإنكار؟ فإن المسألة لم تخرج عن دائرة الإمكان، وكل ما كان سبيله ذلك وأخبر الصادق المصدوق بوقوعه وجب المصير إليه اعتقاداً واعتماداً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل، انتهى باختصار.
وقد كتب بعده موافقاً عليه الفقيه الأوحد سيدي مسعود جموع مستدلاً على الموافقة بحديث أحمد والترمذي عن معاذ في وضع الرب تعالى كفه بين كتفيه في المنام فتجلى له بها كل شيء، ثم إن التاجموعتي ألف في المسألة رسالة سماها: ملاك الطلب وجواب أستاذ حلب. وفي نشر المثاني في أهل القرن الحادي والثاني. في ترجمته كلاماً آخر له في هذه المسألة في بعض رسائله، يصحح فيه القول بما رآه فيها ويرد القول بخلافه، راجعه.
وممن أفتى به من المشارقة الفقيه الأريب المشارك الأديب: أبو عبد الله محمد بن أحمد المنوفي المصري الشافعي نزيل مكة المشرفة، المتوفى سنة أربع وأربعين وألف، ذكر ذلك المحبي في خلاصة الأثر في أعيان أهل القرن الحادي عشر، في ترجمته، ونصه: ومما اتفق له أنه سئل هل كان النبي ﷺ يعلم السحر ويعرفه على التعميم؟ فأجاب عنه: أنه كان يعلم كل شيء منه ومن غيره من غير شك، انتهى.
وانظر هل أرادوا بهذه الإحاطة، وهذا العلم علوم الكائنات خاصة كما هو الظاهر المتبادر، أو ما يشمل علوم الذات العلية كما فهمه من رد كلامهم واعتمد ملامهم، فإن كان الأول فلا ملام على ما نفصله، وإن كان الثاني فهو بعيد من المقام، والله أعلم.
القول الثاني في بيان إحاطة الذات المحمدية بالعلوم الجديدة الكونية:
وممن أفتى بالثاني، وهو القول بعدم الإحاطة، من المغاربة العلامة الأشهر والمحرر الأكبر أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي والكثير من علماء المغرب وخصوصاً أهل فاس، وقالوا:

إن الإحاطة بالأشياء كلها إنما هي لله، والقائل بالإحاطة لغيره إن كان يعتقد ويرى مساواة علم غيره تعالى لعلمه فهو كافر، وبعض المعاصرين للتاجموعتي من علماء فاس ألف في رد كلامه مؤلفاً سماه: المنهج القويم في قصر الإحاطة على العلم القديم. واستدل بآيات وأحاديث ونصوص، كقول الشيخ علي الأجهوري في «شرحه لمختصر خليل» في باب مصرف الزكاة: إن القائل بأن الأنبياء يعلمون ما كان وما يكون مبتدع يكفر ببدعته اتفاقاً، انتهى.

قلت: وعبارة الشيخ إبراهيم بن مرعي الشبرخيتي في شرحه ولا يعطي منها – يعني الزكاة – إجماعا من يكفر ببدعته اتفاقاً، كالقائل بنبوة علي ﷺ وأن جبريل غلط، والقائل بأن في الأمة رسولين ناطق وصامت، فالناطق: محمد عليه الصلاة والسلام، والصامت: علي والقائل بأن الأنبياء والأئمة يعلمون ما كان وما يكون وشبههم، انتهى منه بلفظه.

ومثله للشيخ عبد الباقي الزرقاني وأشار محشيه البناني إلى أنه وقع في كلامهم خلل وتحريف، فكتب على كلام الزرقاني ما نصه: عبارة ابن رشد في رسم العتق من سماع عيسى: ومن يقول إن الأئمة أنبياء يعلمون ما كان وما يكون إلى يوم القيامة. انتهى أي: فهذا هو الذي يكفر ببدعته كما في النص دون ما ذكره هؤلاء، وكيف يقال بتكفير من يقول إن الأنبياء والأولياء يعلمون ما كان أو يكون من قبل الله تعالى وهؤلاء جماعة من الصحابة يقولون إن رسول الله ﷺ أعلمهم بما كان ويكون إلى يوم القيامة، وهذا علي ﷺ يقول كما تقدم: سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء يكون إلى يوم القيامة إلا حدثتكم به، وهو واضع علم الجفر المحتوي على علم ما كان ويكون، وهذا ابنه الحسن يقول فيه حين قتل: لقد فارقكم بالأمس رجل ما سبقه الأولون بعلم ولا أدركه الآخرون. أخرجه أحمد. وهؤلاء جماعة من الأولياء الكبار أخبروا عن أنفسهم بأنهم يعلمون ما كان ويكون بإعلام الله، أفيقدر أحد على أن يسمهم بشيء فضلا عن أن يكفرهم، إلا إن كان والعياذ بالله تعالى ممكوراً به ممن سبقت له من الله الشقاوة الكبرى والخزي الدائم، فالاستدلال بكلام علي الأجهوري هذا وبكلام أتباعه فيه ساقط. ورد كلامه أيضاً - أعني كلام التاجموعتي - الشيخ أبو علي اليوسي المذكور - وكان معاصراً له – برسالة لطيفة، قال فيها: ينبغي أن نعتقد تعظيم نبينا ﷺ ونعتقد أنه أعطي العلم والنور وسائر مراتب الكمالات اللائقة به ما لم يعط أحد من العالمين، لأنه خير الخلق أجمعين.

ثم نكتفي بهذا وما أشبهه، ولا نطالب بالبحث من إحصاء ما علم، فإنه أمر لا تبلغه عقولنا، وليس مطلوباً منا، فالاشتغال به فضول من ثلاثة أوجه، ثم بينها، ومحصلها أن هذا أمر غير مطلوب منا، وإنا لا نبلغ إلى إحصائه ولو اجتهدنا، وأن الباحث فيه إما أن يقع في استنزال صفوة الله من خلقه عن مرتبته الرفيعة، أو في سوء الأدب مع الله تعالى في تشبيه خلقه به، ثم ذكر أن القائل بالتعميم في حقه ﷺ إن أراد الحقيقي بحيث يكون علمه على حد علم الله تعالى فلا فرق بينهما فقد وقع في الورطة العظمى والشرك مع الله مخسرة، وما يوجد من

حديث أو أثر من علمه ﷺ كل شيء على الإجمال لا يفيد شيئاً، لأن العمومات تقع حقيقية وإضافية بحسب صنف الوقوع، وقد قال الله في حق سيدنا موسى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شيء مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شيء﴾ [الأعراف: ١٤٥] ثم قال له مع ذلك: عبد لنا بمجمع البحرين هو أعلم منك. ولما لقي الخضر قال له: يا موسى إني على علم من علم الله لا تعلمه أنت. وقال له: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا ما نقص هذا العصفور من البحر. وقال تعالى في القرآن: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]. وقال تبياناً ما لكل شيء، ثم قال له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه:١١٤] وإن أراد الإطلاق فعليه بيانه ليستفاد الحكم على الكلية بحسبه، وإلا فهو كلام محمول لا تحصل منه فائدة. ثم ذكر إن شئنا عبرنا في حقه ﷺ بالكلية، ولكن مع إرادة التقييد بجنس أو نوع أو صنف كأن نقول: يعلم جميع ما ينبغي لمثله أوكل ما تبلغه عقول البشر، أو كل ما لم يستأثر الله بعلمه أو نحو هذا مما نجزم بصحته ونعتقد أن كل علم قرأته نقص غير لائق به في حاله فهو حاصل له لأنه في عين الكمال إلى غير هذا من كلامه فليراجع في رسالته المذكورة، وهي في نحو من ثلاثة أوراق، وله في هذه المسألة رسالة أخرى كبيرة لم أقف الآن عليها، وقد أشار إليها في «نشر المثاني» في ترجمته فقال: وله كلام في كراريس مع قاضي سجلماسة الشيخ أبي محمد عبد المالك التاجموعتي في قوله ﷺ: «أوتيت علم كل شيء». انتهى.

وممن أفتي به من المشارقة الشيخ نجم الدين محمد بن محمد بن محمد الغزي الدمشقي الشافعي محدث الشام ومسندها وشيخ الإسلام بها، والأستاذ الكبير العالم الصوفي الشهير صاحب التحريرات والرسائل التي لا حصر لها الشيخ أيوب بن أحمد بن أيوب الحنفي الخلوتي الصالحي المتوفى في صفر الخير سنة إحدى وسبعين وألف، وذلك أن المنوفي السابق لما قال مقالته السابقة، وهي أنه ﷺ كان يعلم كل شيء من السحر وغيره من غير شك. نقل جوابه هذا إلى الشيخ نجم الدين الغزي السابق فغضب غاية الغضب وقال: إنه افتراها.

قال في خلاصة الأثر: وأخذ النجم يقيم عليه الحدود في درسه كل ليلة ويقول: إنه إن أصر على ذلك كفر، ونطلب من أقرانه عمل رسالة على وفق مراده فامتنعوا من ذلك وقالوا: إنه أخطأ حيث قالها للعوام.

ومنهم من أحجم ولم يتكلم، وقال: قد وقع فيها خلاف وما رجحوا منها قولاً ينقل، وطال التنقيب على هذه المسألة، قال في الخلاصة: حتى ألف الشيخ أيوب الخلوتي المقدم ذكره في ذلك رسالة سماها الصك الموفي على رقبة المنوفي، وهي رسالة جامعة لكل منثور ومنظوم، فكف بعد المنوفي عن الدرس. انتهى، راجعها في ترجمة المنوفي المذكور.

قلت: ولا أدري إنكارهم عليه هل هو من جهة نسبته إلى النبي ﷺ العلم بعلم السحر، أو من جهة ما تضمنه كلامه من أنه كان يعلم كل شيء، أو من جهتهما معاً، فإن كان الأول فإنما يتوجه إنكارهم لو أراد أنه كان يعلمه بالتعلم من السحرة ونحوهم، إذ هذه رذيلة لا تليق

بآحاد المسلمين فضلا عن جنابه ﷺ وليس في كلامه ما يفيد هذا أو يشعر به، أما لو كان أراد أن الله تعالى أعلمه به وبكيفيته من جملة العلوم التي أعلمه إياها وأمده بها معجزة له – كما هو المتبادر من المقام – فلا إنكار. وقد ذكر في الفتوحات في الباب الثالث والسبعين ومائتين أنه اطلع في جملة ما أطلعه الله عليه في بعض الحضرات على خزائن العلوم المهلكة، ورأى فيها علوماً ما انشغل بها أحد إلا هلك من علوم العقل المخصوصة بأرباب الأفكار من الحكماء والمتكلمين، ورأى منها ما يؤدي صاحبه إلى الهلاك الدائم، وما يؤدي صاحبه إلى هلاك ثم ينجو غير أنه ليس لنور الشرع فيه أثر البتة من علوم البراهمة كثيراً، ومن علوم السحر وغير ذلك، قال: فحصلت جميع ما فيها من العلوم لتجنبها، وهي أسرار لا يمكن إظهارها، وتسمى علوم السر. انتهى راجعه.

وإن كان الثاني، فلا إنكار أيضاً إلا إن كان يريد العموم الحقيقي اللازم منه مساواة علمه ﷺ لعلم الله تعالى، وليس في كلامه ما يعين هذه الإرادة.

وإن كان الثالث فجوابه يعلم من جواب هذين، فليتأمل، والله أعلم.

ومما يؤيد فتواهم – أعني فتوى أصحاب هذا القول الثاني – كلام عياض في ((الشفا)) في القسم الثالث في الباب الأول منه في فصل حكم عقود الأنبياء في غير التوحيد والإيمان، ونصه: وأما ما تعلق بعقده يعني بجرم قلبه من ملكوت السموات والأرض وخلق الله تعالى وتعيين أسمائه الحسنى وآياته الكبرى، وأمور الآخرة وأشراط الساعة وأحوال السعداء والأشقياء، وعلم ما كان وما يكون مما لم يعلمه إلا بوحي، فعلى ما تقدم من أنه معصوم فيه لا يأخذه فيما أعلم به منه شك ولا ريب، بل هو فيه على غاية اليقين، لكنه لا يشترط له العلم بجميع تفاصيل ذلك، وإن كان عنده من علم ذلك ما ليس عند جميع البشر لقوله عليه الصلاة والسلام: «إني لا أعلم إلا ما علمني ربي». ولقوله حكاية عن ربه: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، بل ما اطلعتم عليه واقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]».

وقول موسى للخضر عليهما السلام ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف:٦٦] وقوله ﷺ: «أسألك بأسمائك الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم». وقوله: «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو استأثرت به في علم الغيب عندك». وقد قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦] قال زيد بن أسلم وغيره: حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى. وهذا مما لا خفاء به إذ معلوماته لا يحاط بها ولا منتهى لها، انتهى منه بلفظه.

وقد ترى أنه يلزم مما قاله التاجموعتي ومن وافقه إن قلنا: إنهم أرادوا بالإحاطة الإحاطة الكاملة - وهي الحقيقية – مساواة العلم الحادث للعلم القديم في العموم، والإحاطة والمساواة فيهما تستلزم المماثلة في الحقيقة والذات، وهي مستلزمة لحدوث العلم القديم، بل ولسائر لوازم العلم الحادث من العرضية والافتقار وغيرهما، واعتقاد ذلك والقول به

وقد كنت أشرت إلى تحصيل ما مرَّ بأبياتٍ في جواب سؤال وهي:

كفر، وممن أشار إلى هذا الشيخ الأستاذ شهاب الدين أحمد الملوي المصري في شرحه الكبير لسلم الإمام الأخضري في علم المنطق لدى قوله:

صلى عليه الله ما دام الحجا يخوض في بحر المعاني لججا

نصه فيه: قال المصنف – يعني - الأخضري وفي هذا أي: في قوله يخوض في بحر المعاني لججا شبه على أنه لا يحتوي على جميع المعاني إلا الله تعالى كما قال: ﴿وَلا يُحِيطُون بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَفَوْق كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه:١١٤].

قلت – أي: قال العلامة الملوي – وهو صريح في الرد على من ادعى أن النبي ﷺ علمه مساوٍ لعلم الله تعالى محيط بكل شيء من كل وجه إحاطة كإحاطة علم الله تعالى فإنه ما توفي حتى أعلمه الله بكل شيء.

وقد ألف شيخ شيوخنا العلامة اليوسي تأليفاً في الرد على من زعم ذلك وتكفيره، واستدل على ذلك بأدلة عقلية ونقلية، كيف وهو مصادم أيضا لقوله تعالى ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩] وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه:١١٤] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغَيْب لاسْتَكْثَرْتُ مِن الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ﴾ [الأعراف :١٨٨]الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان:٣٤] الآية، وعلى القول بأن الله تعالى أعلمه ﷺ مفاتيح الغيب فليس علم إحاطة كعلمه تعالى وهو مصادم أيضاً للإجماع على أن سر القدرلم يعلمه ولا يعلمه نبي مرسل ولا ملك ولا غيرهما من هو من مواقف العقول، ويلزم أن يكون علمه ﷺ مساوياً لعلم الله تعالى ومماثلاً له في الإحاطة والحقيقة، فلزم حدوث علمه تعالى للمماثلة لأنه يجب لأحد المثلين ما وجب للآخر، بل ويلزم سائر لوازم العلم الحادث من العرضية والافتقار وغيرهما، ولا يجاب بالاختلاف بالقدم والحدوث، لأن القدم والحدوث خارجان عن حقيقة العلم، والحقيقة لا تختلف بالعوارض، وأما الأحاديث الموهمة خلاف تلك القواطع فمؤولة، أما عدم ادعاء المساواة لعلم الله كأن يقال: إن النبي ﷺ علم عِلْم الأولين والآخرين فلا يمتنع، لأن ذلك ليس مستلزماً لمساواته لعلم الله تعالى والإحاطة من كل وجه، ومن أقوى ما يرد به على هذا القائل أيضا ما ورد في الحديث من أنه ﷺ يلهم في الآخرة محامد يحمد بها الله عز وجل لم يكن ألهمها قبل، لكن شيخ شيخنا بالغ في القول بتكفيره، والذي يظهر عدم التكفير، لأن هذه اللوازم بعيدة لا يقول بها هذا القائل مع أن لازم المذهب ليس بمذهب، خصوصاً إذا كان اللازم بعيداً. انتهى منه بلفظه. وقد نقل تلميذه العلامة الصبان أوله وآخره وحذف وسطه من قوله: كيف وهو مصادم أيضاً إلى قوله: لكن شيخ شيخنا وذلك في حاشيته على الشرح الصغير للملوي على السلم المذكور وأقره.

يَا أيُّهَا السَّامع فاستمع تفد	فائدةً لهَا الرواحل تُشد
عَلِمَ النبيُّ بالكلِّ حتَّى الخمس	به أجز من ردَّ بحث اليوسي
بحجَّةٍ بَالغةٍ للجدل	مِنْ قولِهِ أُوتيتُ عِلم الكل
فاندرجت أقسام حكم العقل	أما المجاز فخلاف الأصل
فيتعلق بسرِّ القدر	بلا نهايةٍ لدَى المعتبر
حدوثه قدم علم الباري	بينهما مورد فرق جاري
فابن أبي جمرة والسيوطي مع	شهابهم وغيرهم بذا قطع
مع ابن عبد القادر المجيب	محمد المدعو بالحبيب

انتهى كلام أبي محمد الحبيب رحمه الله.

* * *

[دعوى النسخ في علم النبي ﷺ بالمغيبات]

وما ذكره من نسخ ما عارض ما استدلَّ به أبو مروان، يا حبذا به لو تعين التاريخ، وربما يرشد إليه حديث البخاري عن أسماء أنّ النبي ﷺ حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**مَا مِنْ شَيءٍ لم أكنْ أريته قبل إلاَّ رأيته في مقامي هذا، حتى الجنّة والنَّار**[1]».

وهو ظاهرٌ في العموم؛ لأنّ لفظ (الشيء) أعمّ العام، وقد وقع نكرة في سياق النفي، ثم جاء بأداة الحصر، فيقتضي قوة الكلام على هذا، رؤية كل شيءٍ لم يره قبل.

حتى قال الكرماني في شرح البخاري: فيه دلالةٌ على أنه ﷺ رأى ربه في هذا المقام؛ إذ الشيء يتناوله والعقل لا يمنعه، والعرف لا يقتضي إخراجه.

وحديث سمرة بن جندب قال: كُسفت الشمس فصلَّى النبي ﷺ ثم قال: «**إني والله لقد رأيت منذ قمت أصلِّي ما أنتم لاقوه من أمر دنياكم وآخرتكم**[2]»، أخرجه أحمد في مسنده.

* * *

---

(١) رواه البخاري (٣١٢/١)، ومسلم (٦٢٤/٢).

(٢) رواه أحمد (١٦/٥)، والبيهقي في الكبرى (٣٣٩/٣).

[بيان في الرُّجوع إلى الفرق بين العلم الإلهي والعلم النبوي]

والأظهر في الجواب أن الآيات والأحاديث القاضية باستقلال الحق بالعلم بالمغيبات إجمالاً وتفصيلاً لا تعارض ما ذكر من علمه ﷺ بها أيضًا بالفرق الذي ذُكر، وهو أنّ علم الحق قديمٌ، وعلمه ﷺ حادثٌ تبعًا لوجوده الذي هو حادث، فلو لم تكن الفروق التي لا يلزم معها التساوي لو وجدت الإحاطة إلا هذا لكفى.

وفرق آخر ناتج عن هذا، وهو أنّ علمه ﷺ استمدادي، فيفارق من هنا علم الحق؛ إذ هو استبدادي، فالعلم الذي هو كذلك، هو الذي انفرد الحق به ولم يشاركه فيه غيره، وأيضًا فعلم الله ذاتي له، وعلم نبينا ﷺ عرضي من الله له، وفرق بين الذاتي والعرضي.

وفي ترجمة مفتي حلب الفقيه المحدِّث أبي حفص عمر بن عبد الوهاب العرضي الحلبي الشافعي المتوفى سنة أربع وعشرين وألف من خلاصة الأثر ما نصَّه:

ومن تعليقاته جوابه عن مقالة الأستاذ البكري أنّ النبي ﷺ كان يعلم جميع علم الله، ولا إنكار عليه فيها؛ إذ يجوز أن الله يهبه علمه ويطلعه عليه، ولا يلزم من ذلك أن يدرك محمد ﷺ مقام الرُّبوبية؛ إذ العلم المذكور ثابتٌ لله بذاته، وللمصطفى بتعليم الله إياه، وإلى مثل ذلك أشار البوصيري بقوله:

فإنّ من جودك الدّنيا وضرَّتها ومن علومك اللّوح والقلم

ثم استدلَّ بحديث التجلّي المشتمل على قوله: «**فعلمت علم الأولين والآخرين**» راجع صحيفة» ٣١٧ من الجزء الثالث من خلاصة الأثر.

فلا مسايرة، ولا مشاركة، ولا مساواة، ولا محاككة، إلا عند جاحد لا يؤمن بقدرة الواحد المعطي من شاء من خلقه ما شاء، والوهاب كل فردٍ ما يشاء سبحانه، على أني وقفت على رسالةٍ لعلاَّمة القرن الحادي عشر ومجدده، محدث المدينة، الملا إبراهيم بن حسن الكوراني الكردي سماها:

«الجواب الكافي عن مسألة الإحاطة العلمية بأنواع المعلومات من واجبٍ وجائزٍ ومستحيلٍ».

هل دليل اختصاصها بالألوهية عقلي سالم من الإشكال، أو المعتمد في ذلك النقل، أو يصح أن يُقال: يمكن الإحاطة بتحويط الله، والمختص بالألوهية كون

الإحاطية ذاتية؟

فقال قدس سره: الدليل العقلي على اختصاصها غير سالمٍ من الإشكال، كما أشار إليه في حاشية الشرح القديم للتجريد، ويصح أن يُقال: يمكن الإحاطة بتحويط الله، والمختص بالألوهية كون الإحاطة ذاتية، والمعتمد في ذلك النقل كحديث الترمذي عن معاذ وصححه: «**فتجلَّى لي كل شيءٍ وعرفته**[1]» الحديث.

* * *

[بيان في فهم الشيخ الأكبر للمسألة]

قال الشيخ الوارث المحمدي محيي الدين بن العربي[2] في الباب: (١٥٦) من

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠/١٠٩).

(٢) هو من تغني معرفته عن الإشارة إليه، وإن كانت معرفته مستحيلةً على غير أبناء جنسه، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[سبأ:١٣]، وأنشدوا:

إيَّاك واسم العامرية إنَّني ... أغارُ عليها من فم المتكلِّمِ

أغارُ عليها أن يراها سوايَ بلْ ... أغارُ عليها أن أرها لغيرتِي

فهو ممن ورثوا: (لا يعرف قدري غير ربِّي)، فكان من موروثه ﷺ مُربَى ولغيره مُربِي، سُتروا في الدنيا؛ تخلقًا بأخلاق سيدهم، وغدا: (أنا سيِّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر)، خاتم الولاية المحمدية، حجَّة الله على أوليائه، العين التي يشرب بها عباد الله، الولي، الكامل، المقرَّب، السند، العالم بالله تعالى، المؤيَّد من الله ورسوله في جميع شئونه، سيدنا محمد بن علي بن محمد الطائي الأندلسي، المعروف بالشيخ ابن العربي ﷺ، ونفعنا به في الدارين، آمين، وأماتنا على محبته ومحبة جميع الصالحين، آمين.

ولد ﷺ في يوم الإثنين السابع عشر من رمضان عام خمسمائة وستين هجرية، الموافق الثامن والعشرين من يوليه سنة ألفٍ ومائةٍ وخمسٍ وستين ميلادية في مدينة مرسية (من أعمال ولاية اندالوزى) إحدى ولايات الأندلس (المعروفة الآن بإسبانيا)، وكان أبوه من أئمة الفقه والحديث، ومن أعلام الزهد والتصوف، وكان جده أحد قضاة الأندلس وعلمائها، فنشأ نشأةً دينيَّةً نورانيَّةً صالحةً، وما كاد لسانه ﷺ يبين حتى دفع به والده إلى أبي بكر بن خلف عميد الفقهاء، فقرأ عليه القرآن الكريم بالسبع في كتاب الكافي، فما أتم العاشرة من عمره حتى كان مبرزًا في القراءات، ملهمًا في المعاني والإشارات، وكان ﷺ من الموقعين عند بعض ملوك المغرب، ثم أنه طرقه طارقٌ من الله، فخرج في البراري على وجهه، إلى أن نزل في قبرٍ، فمكث فيه مدةً، ثم خرج من القبر يتكلَّم بتلك العلوم التي نُقلت عنه.

وقال الشيخ المناوي في «الطبقات»، وقال بعضهم: برز الشيخ منفردًا مؤثرًا للتخلِّي والانعزال عن الناس ما أمكنه، حتى أنه كان لا يجتمع به إلا الأفراد، ثم آثر التأليف، فبرزت

عنه مؤلفاتٌ لا نهاية لها، تدلُّ على سعة باعه في العلوم الظاهرة والباطنة، وأنه بلغ مبلغ الاجتهاد في الاختراع والاستنباط وتأسيس القواعد والمقاعد، التي لا يدركها ولا يحيط بها إلا من طالعها بحقها اهـ.

ولم يزل سائحًا في كل بلدٍ بحسب الإذن المحمدي، ثم يرحل منها، ويخلف ما ألَّفه من الكتب فيها، وكان آخر إقامته بالشام، وكان ﷺ متقيِّدًا بالكتاب، محمولاً بالسنَّة، ويقول:كل من رمى ميزان الشريعة من يده لحظة هلك.

وله ﷺ كراماتٌ أكثر من أن تُحصى، ومن أجلِّها مؤلفاته التي لم يجد الزمان بمثلها، وعجز أرباب العقول العقيمة عن النسج على منوالها، ومنها: الإخبار به قبل زمنه على لسان الحكيم الترمذي حين ألف كتابه «ختم الأولياء»، فأخبر أنه لا يحلُّ تلك الأسئلة إلا رجلٌ من أهل الولاية، يكون اسمه على اسمي واسم أبيه على اسم أبي، فكان هو الشيخ الأكبر؛ لأن اسم الحكيم الترمذي محمد بن علي، ومنها: إخباره ﷺ عن السلطان سليم وعن دخوله الشام قبل زمن هذا السلطان، فوقع الأمر على ما أخبر به، وبنى عليه السلطان قبره المعروف بسبب ذلك، واختلف الناس في شأنه ﷺ: بين معتقدٍ، أو مسلِّمٍ، أو منكرٍ، ونعوذ بالله من الإنكار، ذلك فضله يؤتيه من يشاء من عباده، لم نشاركه في خلقٍ حتى نشاركه في تقسيمٍ، وإذا أردنا أن نبيِّن المنكرين من المعتقدين فلا بدَّ أن نأخذ في الاعتبار ما يلي:

أن كتب ومؤلفات الشيخ الأكبر ﷺ قد علمها واطَّلع عليها جميع علماء الإسلام من وقت الشيخ إلى يومنا هذا، ومن يقل بغير هذا فقد نسب الجهل إلى علماء الإسلام، وحشاهم من ذلك؛ لأن كتبه وعقائده أشهر من أن يُشار إليها، وما من بلدٍ مسلمٍ أو حتى غير مسلمٍ إلا وكتب الشيخ موجودةٌ فيه، معلومةٌ عند علمائه، وإذا نظرنا إلى المتكلمين في كتب الشيخ وعقائده نجدهم كالآتي:

أولا: المسلمون للشيخ علومه وسكتوا عن التكلُّم فيه، ومنهم شيخ الإسلام النووي؛ فإنه أُستفتِي في الأمر، فكتب قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤١]، لكن الذي عندنا: أنه يحرم على كل عاقلٍ أن يسيء الظن بأحدٍ من أولياء الله ﷻ، ويجب عليه أن يؤول أقوالهم وأفعالهم ما دام لم يلحق بدرجتهم، ولا يعجز عن ذلك إلا قليل التوفيق.

وقال في «شرح المهذب»: ثم إذا أوَّل فليؤول إلى سبعين وجهًا، وإن لم يقبل عنه إلا تأويلاً واحدًا، ما ذلك إلا تعنُّتٌ اهـ. وليت شعري! ومن يستبرئ لدينه مثل هذا الحبر الآن، وكذلك شيخه الخوري حين أُستفتِي، فقال: اختلف فيه من الكفر إلى القطبانية، والتسليم واجبٌ، ومن لم يذق ما ذاقه القوم ويجاهد مجاهداتهم لا يسعه من الله الإنكار عليهم اهـ.

وتبعهم على ذلك خلقٌ كثيرون؛ سالكين طريق السلامة.

ثانيًا: المنكرون علوم الشيخ ﷺ ومقامه: وهم فريقان: الأول: من قصد الإنكار لحسدٍ، أو حظِّ نفسٍ، أو نتيجة لما فهمه بفهمه السقيم لكلام الشيخ، وهم نفرٌ معدودون: كابن تيمية،

وقام بالرد عليه علماء كلا من: الشيخ محمد المزجاجي في كتابه «**هداية السالك في أسنى المسالك**»، والشيخ محمد المكي في كتابه «**عين الحياة في معرفة الذات والأفعال والصفات**»، والشيخ إبراهيم الكوراني (الملقَّب بمجدد الأشاعرة) في مواضع متفرقةٍ من كتبه، وأفرد لذلك كتاب «**مطلع الجود في تحقيق التنزيه في وحدة الوجود ومشرع الورود إلى مطاع الجود**»، وهو شرحٌ على استشكالٍ في الكتاب السابق، والشيخ النابلسي في كتابه «**الرد المتين على منتقص العارف بالله سيدي محيي الدين**»، وهو من أقواها في الرد، والشيخ الشعراني في كتابه «**القول المبين في الرد عن الشيخ محيي الدين**»، وهو يدافع عن الشيخ بنقل نصوصه، ومنهم كذلك القاري، والتفتازاني، وقام بالرد عليهما الشيخ عمر حفيد العطار الدمشقي في كتابه «**الرد على المعترضين على الشيخ محيي الدين**»، وتناول كلامهما مسألةً مسألةً، وقد طُبع هذا الكتاب قديمًا، ومنهم أيضًا البقاعي، ورد عليه الجلال السيوطي في رسالته «**تنبئة الغبي في تبرئة ابن العربي**»، وكذلك الشيخ محمد بن جمعه الحصكفي في كتابه «**ترياق الأفاعي في الرد على الخارجي البقاعي**»، وإن كان سبب التأليف هو رسالة البقاعي في الشيخ ابن الفارض ﷺ، وكذلك قد أفتى في الشيخ ابن الخياط، وردَّ عليه العلامة الفيروزآبادي في كتابه «**الرد على المعترضين على الشيخ محيي الدين**»، أو «**الاغتباط بمعالجة ابن الخياط**»، أما العلاء البخاري وكذلك السخاوي فلم يخرج إنكارهما عن واحدٍ ممن ذُكروا، فكلامهم مكرَّرٌ، والرد على من ذكروا ردًا عليهم.

وأما الفريق الثاني ذكره الشيخ المناوي في «**الكواكب**»، فقال: فريقٌ قصد بإنكاره تنفير الناس عن مطالعة كتبه؛ لما اشتملت عليه من المُشكَلات وغويص المعضلات،فلم يقصدوا بإنكارهم حظًّا نفسانيًا.

قلت: ومنهم بعض الصوفية ممن يعتقدون بولايته وقطابته، مع نهي أتباعهم عن النظر في كتبه؛ خشية أن يفهموا بالفهم السقيم أقوال الشيخ، فيظن به سوءً، فيهلك مع الهالكين .

واعلم أني ذكرت لك ما وقفت عليه من المؤلفات مما هو تحت يدي، وإلا فإن الرد على الاعتراضات الواردة بسبب الفهم السقيم على الشيخ ﷺ كثيرةٌ، أكثر من أن تستقصى، ومنها على سبيل المثال «**الجانب الغربي في حل مشكلات الشيخ ابن عربي**» للشيخ محمد المكي، ولا يخفى عليك أيضًا أن الرد على من ذكروا منثورٌ في كتب القوم، وفي فتاوى مشايخ الإسلام ومؤلفاتهم، هذا فضلاً عن أن بعض من ذكروا عليه اختلافًا بين أهل الإسلام كابن تيمية فإن العلماء قاموا عليه في كثير من الأمور التي خرق بها إجماع المسلمين، كمسألة (الزيارة النبوية الشريفة) وغيرها من المسائل في علم الكلام، وراجع في ذلك «**شفاء السقام**» للتقي السبكي، «**ودفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك للإمام أحمد**» لتقي الدين الحصني، وغيرها كثيرٌ؛ ولكن العبرة عندنا في الدفاع عن الشيخ هي بالقول لا بالقائل، حتى وإن لم يكن معتبرًا عند أهل العلم.

ثالثًا: المدافعون عن الشيخ والمحبين له، وهم كل أهل التصوف من عصر الشيخ إلى قيام

الساعة، وكل من كان محبًا لهم، أو تابعًا لهم من الفقهاء وعامة المسلمين، ونتبرك بذكرهم، فنقول: منهم العز بن عبد السلام، وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، وصلاح الدين الصفدي في تاريخ مصر، والشيخ زروق، فقال: هو أعرف بكل فنٍ من أهله، وحيث أطلق القوم (الشيخ الأكبر) فمقصودهم هو اهـ.

والشيخ كمال الدين ابن الزملكاني قال في كتابه المؤلف في النبي والملك: كان الشيخ ابن عربي بحرًا زاخرًا في المعارف الإلهية.

والشيخ قطب الدين الشيرازي، وقاضي القضاة الشمس البساطي المالكي، وبدر الدين ابن جماعة، وقيل أن له شرحٌ على «الفصوص»، والشيخ تقي الدين السبكي، وقد ترجمه قائلاً: كان الشيخ محيي الدين آيةً من آيات الله. والشيخ سراج الدين المخزومي، ألّف في الرد عنه كتابًا حافلاً أكثر الشيخ الشعراني النقل منه في مقدمة «اليواقيت»، وشدَّد فيه الشيخ المخزومي على أن شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني لم يفتِ في الشيخ بسوءٍ، وجعل يستشهد لذلك. وكان القاضي شمس الدين الخونجي الشافعي يخدمه خدمة العبيد.

والشيخ اليافعي في إرشاده، كان يقول في ذلك: إن حكم إنكار هؤلاء الجهلة على أهل الطريق حكم ناموسةٍ نفخت في الجبل تريد إزالته من مكانه بنفختها.

والشيخ محمد المغربي شيخ الجلال السيوطي، وغيرهم كثيرٌ مما لا يحصيهم العدُّ رضي الله عن جميعهم.

رابعًا: وهم ممن لم يعرف لهم إنكارٌ، ولا قولٌ بتسليمٍ ولا محبَّةٍ من علماء الإسلام، فالقول فيهم: أن جميعهم كما قدَّمنا قد علموا بمؤلفات الشيخ وعقيدته، وإلا للزمهم الجهل بأمور المسلمين، وإنهم مؤيِّدون لعقيدة الشيخ وعلومه، مقرُّون بعلوِّ منزلته ورفعته، وإلا لو كان الأمر كما توهمه المنكرون لأخذنا جميع علماء الإسلام بقول القائل: (الساكت عن الحق شيطانٌ أخرس)، وإما أن يكون سكوتهم لخوف المؤيدين للشيخ وهذا بعيدٌ، فلم يبق إلا أن يكونوا مقرِّين، فيكون كل من لم يفتِ في الشيخ بشيءٍ محبًا له، مقرًا بعقيدته، وإنما كان المانع له عن تبيين القول ما رآه من سفسطة المنكرين، وقوة ما ردَّ به مشايخ الإسلام عليهم.

تعقيب: أُستفتِي الحافظ الذهبي، وكان من المنكرين علي الشيخ بسبِّ «الفصوص» مع تقريره لجميع مؤلفاته عن قول الشيخ في «الفصوص»: أنه أعطي الكتاب من الحضرة النبوية الشريفة، فقال: ما أظن أن مثل الشيخ محيي الدين يكذب أصلاً اهـ.

فهل هذا يعدُّ رجوعًا عن قوله في «الفصوص»، الله أعلم !.

تنبيه: اعلم أننا لا نعتبر أحدًا من مشايخ الإسلام المذكورين حجَّةً على الشيخ الأكبر، فإن كانوا هم مشايخ للإسلام فهو شيخ الإسلام والإيمان والإحسان والإيقان وما فوقه من مراتب الدين؛ إذ من شروط الوراثة المحمدية أن يكون أعلم الناس في عصره بالكتاب والسنة، وأكثر أهل عصره اتِّباعًا لهما، ومعاذ الله أن يكون واحدًا من غير الوارثين لسيدنا محمد ﷺ حجَّةً عليهم، فكل واحدٍ من المحمدين حجَّةٌ لأخيه، وليس غيرهم حجَّةً عليهم،

الفتوحات بعد كلام: وهذه الأنوار إذا حصلت على الكمال، تعلّق علم صاحبها بما لا يتناهى، وهو عزيز الوقوع عندنا، وأما عند غيرنا فهو ممنوع الوقوع عقلاً، حتى أنّ ذلك في الإله مختلفٌ فيه عندهم، وما رأينا أحدًا حصل له على الكمال ولا سمعنا عنه، ولا حصل لنا، وإن ادَّعاها إنسان فهي دعوى لا يقوم عليها دليل أصلاً مع إمكان حصول ذلك انتهى.

والشيخ محيي الدين مع دلالة كلامه في عقلة المستوفز أنه أُوتي علم ما ليس في اللّوح المحفوظ حيث قال:

ولا أذكر في هذا الكتاب إلا ما في اللّوح المحفوظ، وأما ما زاد على ذلك فلا يلزمني، قال: ولا حصل لنا، قال: وما رأينا أحدًا حصل له على الكمال، ولا سمعنا عنه، مع اطلاعه على حديث الترمذي السَّابق، فقيّد بقوله على الكمال.

=

وإنما قول هؤلاء المشايخ رضي الله عنهم حجَّةٌ علينا؛ لأننا بعقولنا المقيدة وبجهلنا لحقائق الدين لم نكن لنقبل علوم المحمدين؛ فجعلنا إقرار من هو أقرب إلينا في مرتبة العقل والفكر النظري كالواسطة التي قبلنا بها تلك العلوم؛ لقربهم من مرتبتنا العقلية، وإن كانوا هم فوقنا في تلك المرتبة؛ لوسع اطِّلاعهم على النصِّ الشرعي الظاهر.

واعلم أن هذا القول ليس قدحًا في علماء الشريعة معاذ الله، بل هو إعلامٌ على علوِّ مرتبة الوراثة المحمدية، بل إن ممن ظهروا بالعلم الظاهر كالأئمة الأربعة هم عند القوم من أهل الوراثات، وإن اختلفت مراتبهم بين وتدٍ أو صدِّيقٍ، أو غير ذلك من مراتب الولاية.

وبالجملة: فإن القول في الشيخ الأكبر نفعنا الله به في الدنيا والآخرة أعظم من أن يحمله هذا الكتاب، وليس هذا محل بسطه، وإن شاء الله سنقوم بتحقيق الكتب التي تدافع عن الشيخ والتي سبق ذكرها، ونذكر الدليل والشواهد على كل مقولةٍ أو عقيدةٍ أو فتوى.

واعلم أني ذكرت من أقوال الشيخ ما كللت به تحقق هذا الكتاب، والتي ستأتي في محلها إن شاء الله: من القول بحدوث العالم، ونفيه للحلول والاتحاد، وغير ذلك مما نُسب إليه إما محض افتراء أو فهم كلامه على غير مقصده.

ولنختم تلك الترجمة بما ذكره سيدي عبد الوهاب ﷺ: رأيت في واقعة الشيخ الأكبر قَدَّس الله سرَّه ومعه سيدنا آدم عليه السلام، فقال الشيخ لسيدنا آدم عليه السلام هذا الولد يحبنا كثيرًا، وكنت في هذا الوقت مولعًا بقراءة كتب الشيخ والرد عنه والأجوبة عن مسائله، فقال لي سيدنا آدم: يا ولدي، ألم تقرأ القرآن؟ فقلت: بلى يا سيدي. فقال: ألم تقرأ قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[هود:١١٨] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ويكفي في ذلك مسألة واحدة كما في حديث الشفاعة في المحامد التي يحمد الله تعالى يوم القيامة، حيث قال: «ولا أعلمها الآن».

فإنَّ الظاهر أنَّه مقابلة يوم القيامة، فمن دلَّ عنده دليل على أنَّه ليس في مقابلة يوم القيامة، وأنَّه قد علمها من بعد تجلِّي الضربة بين الكتفين، فقد بلغه ما لم يبلغ الشيخ محيي الدِّين، وأما الإمكان فقد نصَّ عليه.

انتهى ملخص ما في الرِّسالة الكورانية، وهي مؤلفة سنة ١٠٩٨ هـ قبل موت مؤلفها بنحو ثلاث سنين.

* * *

[الرَّد على بعض الشُّبهات]

قلت: لك أن تقول في تقرير قوله ﷺ في المحامد: «لا أعلمها الآن»، إن هذه المحامد مما يرجع لتمجيد كمالات الحق سبحانه، وتقديس ذاته، وكمالات الحق لا يمكن له ﷺ الإحاطة بها إحاطة شمولية كلية؛ لأن الحق الذي ينبغي أن يفهم في كلام من جوّز الإحاطة على النبي ﷺ أنهم أرادوا الإحاطة بأمور المكونات، وحوادث الموجودات، لا ما يرجع لذات الحق سبحانه مما تقتضيه خاصية الألوهية، فإن الله سبحانه وتعالى منفرد، وفي كماله متوحد: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص:١: ٤].

وقد اعترف النبي ﷺ بالعجز عن معرفته جميع صفات ربه حيث قال: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**[١]».

ومع ذلك فله ﷺ في بساط المعرفة بربه وصفاته وأسمائه، وكامل نعوته ما لم يصل إليه ملكٌ مقرَّبٌ، ولا نبيٌّ مُرسلٌ، ولا فردٌ من أفراد الخلق، ولا جميعهم بإعلام الله له، فكلما أعلم النبي ﷺ بظهور أمر حمد ربه بما يناسبه.

وهناك قال: «**فيلهمني ربي محامد لا أعلمها الآن**[٢]»، ويحتمل أن يكون النبي ﷺ قال: «لا أعلمها الآن» علمًا تفصيليًا شموليًّا، وإلا فقد أثبت لنفسه علمًا جزئيًّا بها، حيث أخبر بما سيقع الآن، وهكذا.

---

(١) رواه مسلم (٣٥٢/١)، وأبو داود (٦٤/٢)، والترمذي (٥٢٤/٥)، والنسائي (٢٣١/١).

(٢) رواه النسائي في الكبرى (٣٣٠/٦)، وأبو يعلى في مسنده (٣١١/٧).

فعلى هذا إسكاته ﷺ للذي قال له: إنك تعلم ما في غدٍ، لعلّه من ذلك: أي مما يتعلق بذات الحق، أو من باب ما كان يتظاهر به ﷺ من العبودية المحضة، والسِّتر على مقامه، على أن من سَبر الأحاديث الواردة في باب إخباره ﷺ بالمغيبات يتحقق أنه ﷺ كان يعلم ما في غدٍ، وغد الغد إلى الأبد، ويجده ﷺ أخبرنا بأشياءٍ كثيرةٍ مما يدخل في الخمس التي هي:

العلم بالساعة في الجملة، ووقت نزول الغيث، والعلم بما في الأرحام، وماذا تكسب النفس غدًا، وما تدري نفس بأيّ أرضٍ تموت.

إن لم يكن علمًا تفصيليًا في الأوليين، فإجمالاً يقرب من التفصيل فيهما بحسب ما بلغنا الآن، وتفصيلاً في الثلاث الأخر، كل ذلك بإعلام الله له.

وراجع الخصائص الكبرى التي هي البحر الطّام في هذا الباب، وجمعت ما لم يجمعه كتاب قبلها ولا بعدها، ولله الحجَّة البالغة(١).

---

(١) فائدة جليلة في جملة من خصائص صاحب الوسيلة: قال ابن طولون في مرشد المحتار إلى خصائص المختار: فيما اختص به في ذاته في الدنيا.

خُصَّ ﷺ بأنه أول النبيين في الخلق وتقدم نبوته، فكان نبيًا وآدم منجدل في طينته، وبتقدم أخذ الميثاق عليه، وأنه أول من قال: بلى يوم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢]، وخلق آدم وجميع المخلوقات لأجله، وكتابه اسمه الشريف على العرش وكل سماء والجنان وما فيها وسائر ما في الملكوت، وذكر الملائكة له في كل ساعة، وذكر اسمه في الآذان في عهد آدم وفي الملكوت الأعلى، وأخذ الميثاق على النبيين آدم فمن بعده أن يؤمنوا به وينصروه، والتبشير به في الكتب السابقة، ونعته فيها، ونعت أصحابه وخلفائه وأمته، وحجب إبليس عن السموات لمولده، وشق صدره في أحد القولين وهو الأصح، وجعل خاتم النبوة بظهره بإزاء قلبه حيث يدخل الشيطان، وسائر الأنبياء كان الخاتم في يمينهم، وبأن له ألف اسم، وباشتقاق اسمه من اسم الله، وبأنه سمي من أسماء الله بنحو سبعين اسمًا، وبأنه سمي بأحمد، ولم يسم به أحد قبله، وقد عدت هذه من الخصائص في حديث مسلم، وبإظلال الملائكة له في سفره، وبأنه أرجح الناس عقلاً، وبأنه أوتي كل الحسن ولم يؤت يوسف إلا شطره، وبغطه ثلاثا عند ابتداء الوحي، وبرؤية جبريل في صورته التي خلق عليها، عد هذه البيهقي.

وبانقطاع الكهانة بمبعثه، وحراسة السماء من استراق السمع والرمي بالشهب، عد هذه ابن سبع، وبإحياء أبويه حتى آمنا به، وبوعده بالعصمة من الناس وبالإسراء، وما تضمنه من اختراق السموات السبع، والعلو إلى قاب قوسين ،ووطئه مكانًا ما وطئه نبيٌ مرسلٌ ولا ملكٌ مقربٌ، وإحياء الأنبياء له وصلاته إمامًا بهم وبالملائكة، واطلاعه على الجنة والنار، عد هذه

البيهقي، ورؤيته من آيات ربه الكبرى، وحفظه حتى ما زاغ البصر وما طغى، ورؤيته للباري تعالى مرتين، وبركوب البراق في أحد القولين، وقتال الملائكة معه وسيرهم معه حيث سار ويمشون خلف ظهره، وبإتيانه الكتاب وهو أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب، وبأن كتابه معجزٌ ومحفوظٌ من التبديل والتحريف على ممر الدهور، ومشتمل على ما اشتملت عليه جميع الكتب وزيادة، وجامع لكل شيء، ومستغنٍ عن غيره، وميسر للحفظ، ونزل منجمًا، وعلى سبعة أحرفٍ، ومن سبع أبواب، وبكل لغة، عد هذه ابن النقيب، وقال أصحاب التحرير: فُضِّلَ القرآن على سائر الكتب المنزلة بثلاثين خصلةً لم تكن في غيره، وقال الحليمي في المنهاج: ومن عظم قدر القرآن أن الله خصه بأنه دعوةٌ وحجةٌ، ولم يكن مثل هذا لنبيٍّ قط، إنما كان يكون لكل واحدٍ منهم دعوة ثم يكون له حجة غيرها، وقد جمعها الله لرسوله ﷺ في القرآن فهو دعوة بمعانيه، حجة بألفاظه، وكفى الدعوة شرفًا ألا تنفصل الدعوة عنها انتهى.

وأعطي من كنز العرش، ولم يعط منه أحد، وخُصَّ بالبسملة والفاتحة وآية الكرسي وخواتيم سورة البقرة والسبع الطوال والمفصل، وبأن معجزته مستمرة إلى يوم القيامة وهي القرآن، ومعجزات الأنبياء انقرضت لوقتها، وبأنه أكثر الأنبياء معجزات، فقد قيل بأنها تبلغ ألفًا، وقيل ثلاثة آلافٍ، سوى القرآن؛ فإن فيه ستين ألف معجزة، قال الحليمي: وفيها مع كثرتها معنًى آخر هو: أنه ليس في شيء من معجزات غيره ما ينحو اختراع الأجسام، وإنما ذلك في معجزات نبينا ﷺ خاصة، وبأنه جمع له كل ما أوتيه الأنبياء من معجزاتٍ وفضائلٍ، ولم يجمع ذلك لغيره، بل اختص كلٍ بنوعٍ، وأوتي انشقاق القمر وتسليم الحجر وحنين الجذع ونبع الماء من بين أصابعه، ولم يثبت لواحد من الأنبياء مثل ذلك، ذكره ابن عبد السلام، وقال بعضهم: خص تعالى بعضًا بالمعجزات في الأفعال كموسى، وبعضًا بالصفات كعيسى، ونبينا بالمجموع ليميزه، وبأنه آخرهم بعثًا فلا نبي بعده، وشرعه مؤبدٌ إلى يوم القيامة لا ينسخ، وناسخ لجميع الشرائع قبله، ولو أدركه الأنبياء لوجب عليهم اتباعه، وفي كتابه وشرعه الناسخ والمنسوخ، وبعموم الدعوة للناس كافة، وأنه أكثر الأنبياء تابعًا[1]، وقال السبكي: أُرْسِلَ للخلق كافة من لدن آدم، والأنبياء قبله بعثوا بشرائع معينات، فهو نبي الأنبياء، وأرسل إلى الجن بالإجماع وإلى الملائكة في أحد القولين، رجحه السبكي.

زاد المازري: وإلى الجمادات والحيوانات والحجر والشجر، وبُعِثَ رحمة للعالمين حتى الكفار بتأخير العذاب عنهم، ولم يعاجلوا بالعقوبة كسائر الأمم المكذبة، وبأن الله أقسم بحياته وأقسم على رسالته، وتولى الرد على أعدائه، وخاطبه بلطفِ ما خاطب به الأنبياء، وقرن اسمه باسمه في كتابه، وفرض على العالم طاعته والتأسي به فرضًا مطلقًا لا شرط فيه ولا استثناء، ووصفه في كتابه عضوًا عضوًا، ولم يخاطبه في القرآن باسمه، بل: يأيها النبي يأيها الرسول، وحرم على الأمة نداءه باسمه، وكره الشافعي أن نقول في حقه: الرسول بل رسول الله؛ لأنه ليس فيه من التعظيم ما في الإضافة، وفرض على من ناجاه أن يقدم بين يدي

نجواه صدقة ثم نسخ ذلك، ولم يره في أمته شيئًا يسؤوه حتى قبضه بخلاف سائر الأنبياء، وبأنه حبيب الرحمن، وجمع له بين المحبة والخلة، وبين الكلام والرؤية، وكلمه عند سدرة المنتهى، وكلم موسى على الجبل، قاله ابن عبد السلام، وجمع بين القبلتين والهجرتين، وجمع له بين الحكم بالظاهر والباطن معًا، ونصر بالرعب مسيرة شهر أمامه وشهر خلفه، وأوتي جوامع الكلم، وأوتي مفاتيح خزائن الأرض على فرس أبلق عليه قطيفة من سندس، وكُلِّمَ بجميع أصناف الوحي، عد هذه ابن عبد السلام، وهبط عليه إسرائيل ولم يهبط على نبي قبله، عد هذه ابن سبع، وجمع له بين النبوة والسلطان، عد هذه الغزالي في الإحياء، وأوتي علم كل شيء إلا الخمس التي في الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان:٣٤]، وقيل: إنه أوتيها وأُمِرَ بكتمها، والخلاف جار في الروح أيضًا، وبيّن له أمر الدجال ما لم يبين لأحد، ووعد بالمغفرة، وهو يمشي حيًا صحيحًا.

قال ابن عباس: ما أمّن الله أحدًا من خلقه إلا محمدًا، قال: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢]، وقال للملائكة: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٢٩]، وقال عمر بن الخطاب: «والله ما تدري نفس ماذا مفعول بها، ليس هذا إلا للرجل الذي قد بين له أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» ﷺ، أفرده الحاكم، ورفع ذكره؛ فلا يذكر الله جلَّ جلاله في أذان ولا خطبةٍ ولا تشهّد إلا ذُكر معه، وعرض عليه أمته بآخرهم حتى رآهم، وعرض عليه ما هو كائن في أمته حتى تقوم الساعة، قال الأسفراييني: وعرض عليه الخلق كلهم من لدن آدم فمن بعده، كما علم أسماء كل شيء، وهو سيد ولد آدم، وأكرم الخلق على الله، فهو أفضل من سائر المرسلين وجميع الملائكة المقربين، وكان أفرس العالمين، عد هذه ابن سراقة، وأُيِّدَ بأربعة وزراء: جبريل وميكائيل وأبي بكر وعمر، وأُعطي من أصحابه أربعة عشر نجيبًا، وكل نبي أعطي سبعة، وأسلم قرينه، وكان أزواجه عونًا له، وأصحابه أفضل العالمين إلا النبيين وكلهم يجتهدون؛ ولهذا قال: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»، ومسجده أفضل المساجد، وبلده أفضل البلاد بالإجماع فيما عدا مكة على أحد القولين فيها وهو المختار، وتربتها مؤمنة وغبارها يطفئ الجذام، ونصف أكراش الغنم فيها مثل ما عليها في غيرها من البلاد، ولا يدخلها الدجال ولا الطاعون، وصرف الحمى عنها أول ما قدمها، ونقل حماها إلى الجحفة، ثم لما أتاه جبريل بالحمى والطاعون أمسك الحمى بالمدينة وأرسل الطاعون إلى الشام، ولما عادت الحمى إلى المدينة باختياره إياها لم تستطع أن تأتي أحدًا من أهلها، حتى جاءت وقفت ببابه واستأذنته فيمن يبعثها إليه، فأرسلها إلى الأنصار، وأُحلت له مكة ساعة من نهار، وحرم ما بين لابتي المدينة، وقال المازري والقاضي عياض: لا تقتل حيات المدينة التي للنبي ﷺ إلا بإنذار، والحديث الوارد في إيذان الحيات خاصٌّ بها، ويسأل عنه الميت في قبره، واستأذن ملك الموت عليه ولم يستأذن على نبي قبله، والبقعة التي دفن فيها أفضل من الكعبة ومن العرش، ويحرم التكني بكنيته، والتسمي باسمه محمد، والتسمي بالقاسم؛ لئلا يكنى أبوه أبا

[رأي القونوي في النفحات الإلهية]

وهناك جوابٌ ثالثٌ ذكره الإمام العارف صدر الدين القونوي في كتابه: «النفحات»، فإنّه لما تكلم على سبب توكيل البلاء بالأكابر، واستيلاء البلايا عليهم دون غيرهم، وذكر أن لها سببين دون ما ذهب إليه علماء الرسوم:

أحدهما: سعة دائرة مرتبتهم، فهم مع صحة محاذاتهم حضرة الحق من حيث العبودية والنيابة المشار إليها بالخلافة والظلية، فليس في الحضرة الإلهية والإمكانية أمر لا تقبله سعتهم، ولا ما ينافيه استعدادهم وحالهم، فيقبلون بالذات والحال والجمعي والمرتبي من حضرة ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر:٢١]، من كل ما فيها بحسب ما تتسع له حال النشأة إذ ذاك، والوقت المقيَّد أيضًا في قوتهم قبول الجميع، نعم وقبول كل ما تضمنه غيب الحق، لكن شيئًا بعد شيءٍ، فكما تقتضي قابليتهم التامة كل خيرٍ كذلك تقتضي قبول ضده النسبي ما داموا مرتبطين بهذه النشأة الإحاطية الجامعية، قال ما نصُّه: وهذا السِّر هو سبب خوف الكُمَّل.

وقوله ﷺ: «**إني لأتقاكم لله وأعلمكم بما اتقى**[1]»؛ لكمال السِّعة ومطلق الإمكان، ومن هذا الباب قوله: «**ما أدري ما يفعل بي ولا بكم**[2]»، فإنَّه خرج من دائرة الأسماء والصِّفات إلى فسيح حضرة الذَّات، فقابلها بسعة مضاهاته وحادي إطلاقها المجهول التعين بمثله من حيث ما يضاهيها، بخلاف حاله المتقدم، فإنه ما دام في حضرات الأسماء يعرف ما يفعل به وبغيره إن شاء الله، ولهذا عرف أسماء الفوارس

القاسم، حكاهما النووي في شرح مسلم[1]، ويجوز أن يُقسم على الله به، وليس ذلك لأحدٍ، ذكر هذه ابن عبد السلام، ولم تر عورته قط، ولو رآها أحدٌ طمست عيناه، وذكر المازري في توثيق عرى الإيمان من خصائصه: أنه لخواص الأنبياء وأنه نبي الأنبياء، وأنه ما من نبي إلا وله خاصة نبوة من أمته إلا وفي هذه الأمة عالم من علمائها يقوم في قومه مقام ذلك النبي في أمته وينحو منحاه في زمانه، ولهذا ورد: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»، وورد: «أن العالم في قومه كالنبي في أمته»، ومن خواصه أن سماه الله عبد الله ولم يطلقها على أحدٍ سواه وإنما قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ [الإسراء:٣]، ﴿نِعْمَ العَبْدُ﴾ [ص:٣٠].

ومن خواصه: أنه ليس في القرآن ولا غيره صلاة من الله على غيره، فهي خصيصةٌ اختصه الله بها دون سائر الأنبياء انتهى. وانظر: مرشد المحتار (ص٢٣٩) بتحقيقنا.

(١) رواه مسلم (٧٨١/٢)، والنسائي (١٩٥/٢).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٣٩/٢٥)، وفي الأوسط (٥٦/٩).

من العشرة الطلائع، وأسماء قبائلهم وعشائرهم، وألوان خيولهم، قبل وجودهم بنحو ستمائة سنة ونيف، وفي هذا المشهد الذاتي لا يُعرف، بل يقول في الريح، ولعله كما قال قوم عاد: الحديث.

وفي بدر: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تُعبد في الأرض**[1]»، مع سابق قوله: «**زويت لي الأرض**».

وقوله: **هذا مصرع فلان**.

وقوله لابن صياد لما قال له معارضًا: بل أشهد أني رسول الله، آمنت بالله، وكتبه، ورسله، مع أنه خاتم النبيين، وهناك بحار زاخرة تعطب فيها الفحول، فما الظن بسواهم. انتهى كلام القونوي[2].

---

(١) رواه مسلم (١٣٨٤/٣)، والترمذي (٢٦٩/٥)، والنسائي (١٨٧/٥).

(٢) ولتمام الفائدة نُورد نص القونوي من النفحات: نفحة كلية تتضمن سر قبول الأكابر المحن واستيلاء البلايا عليهم أكثر من غيرهم وسر قوله ﷺ: إن البلايا موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل وأسرارًا أُخر عزيزة جدًا محن الكمل والألياء والأنبياء لها سببان- غير ما ذهب إليه فهم علماء الرسوم وفهم أكثر أهل الذوق – أحدهما: سعة دائرة مرتبتهم مع صحة محاذاتهم حضرة الحق من حيث العبودة والنيابة المشار إليهما بالخلافة والظلية، فليس في الحضرة الإلهية والإمكانية أمر لا يقبله سعتهم ولا ما ينافيه استعدادهم وحالهم، فيقبلون بالذات والحال الجمعي والمرتبتي من حضرة؛ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١] من كل ما فيها بحسب ما يتسع له حال النشأة، إذ ذاك والوقت المقيد أيضًا.

وفي قوتهم قبول الجميع، نعم! وقبول كل ما تضمنه غيب الحق؛ لكن شيئًا بعد شيء لعدم مساعدة الإله؛ كما قيل:

فإن أتى دهره بأزمنة   أوسع من ذا الزمان أبداها

فكما يقتضي قابليتهم التامة كل خير؛ كذلك يقتضي قبول ضده النسبي ما داموا مرتبطين بهذه النشأة الإحاطية الجامعة، وهذا السر هو سبب خوف الكمل؛ وقوله ﷺ: «والله إني لأتقاكم لله وأعلمكم بما أنفى» لكمال السعة ومطلق الإمكان.

ومن هذا الباب قوله: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩] فإنه خرج من دائرة الأسماء والصفات إلى فسيح حضرة الذات؛ فقابلها بسعة مضاهاته وحاذى إطلاقها المجهول التعين بمثله من حيث ما يضاهيها – بخلاف حالة المتقدم – فإنه ما دام في حضرات الأسماء يعرف ما يفعل به وبغيره إن شاء الله، ولهذا عرف أسماء الفوارس العشرة

[بيان الرد على مَنْ احتج بقول السيدة عائشة]

فإن قلت: وما تقول في قول عائشة كما في الصحيح: «مَنْ حدثك أنّ محمدًا رأى ربه فقد كذب، وهو يقول: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، ومَنْ حدثك أنه يعلم الغيب فقد كذب، وهو يقول: ﴿لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلاَّ اللهُ﴾ [النمل:٦٥] [(١)]».

قلت: ما يكون جواب من يثبت الرؤية للنبي ﷺ وهم جماهير علماء الإسلام في كل عصرٍ وزمانٍ يكون جوابنا، وقد قال العلاَّمة الجامع ابن زكري في حاشيته على الصحيح: قالت ذلك رأيًا لا روايةً، استنادًا لظاهر قوله: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾.

وجوابه: إن المنفي الإحاطة، ومطلق الإدراك في الدنيا، فيخص العموم به ﷺ، ولم يبلغها قوله: «رأيت ربي».

وقال أيضًا على قولها: «ومن حدَّثك أنَّه يعلم الغيب» ما نصَّه: إحاطة من قبل نفسه لا يعلم فيه إلاَّ ما علَّمه ربه كما قال ﷺ انتهى منه.

قلت: ويشهد له ما في مغازي ابن إسحاق أن ناقته ﷺ ضلَّت، فقال ابن اللصيت بوزنِ عظيمٍ: يزعم محمد أنه نبي، ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته! فقال النبي ﷺ: «إنَّ رجلاً يقول: كذا وكذا، وإني والله لا أعلم إلا ما علَّمني الله، وقد دلَّني الله عليها، وهي في شعب كذا، حبستها شجرة[(٢)]».

فذهبوا فجاءوا بها. فأعلم ﷺ أنه لا يعلم من الغيب إلا ما علمه الله.

فتحصَّل من جميع ما سطرناه أنه يعتقد أنه ﷺ علم كل شيءٍ من الغيب مما يتعلق بالدنيا والآخرة وغير ذلك، والإمساك عن الخوض فيما زاد على ذلك أحسن

الطلائع وأسماء قبائلهم وعشائرهم وألوان خيولهم قبل وجودهم بنحو ستمائة سنة وكسر. وفي هذا المشهد الذاتي لا يعرف.

بل يقول في الريح ولعله كما قال: قوم عاد الحديث، وقال في بدر أيضًا: اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد في الأرض، مع سابق قوله: «زويت لي الأرض» الحديث، وقوله: هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان، وقوله لابن صياد لما قال له معارضًا: بل أنت، اشهد أني رسول الله آمنت بالله وكتبه ورسله، مع أنه خاتم النبيين، وهنا بحار زاخرة يعطب فيها الفحول، فما الظن بسواهم؟ وانظر: النفحات الإلهية (ص٢٠).

(١) رواه البخاري (١٨٤٠/٤)، وأحمد (٤٩/٦).

(٢) رواه الطبري في تاريخه (١٨٤/٢)، وذكره ابن حجر في فتح الباري (٣٦٤/١٣).

لم يطلب الدليل النقلي، ولا يكتفي بأخبار أرباب المواجيد الصادقة، والمشاهد المحققة، وبهذا انحلَّت هذه المسألة، وصارت أوضح من بياض النَّهار.

***

[الرَّد على من تصور التجسيم]

وإني لأعجب غاية الإعجاب من فئاتٍ يستدلون بحديث التجلِّي السابق، ووضع اليد المنزهة عن التشبيه، والكيفية بين ظهره ﷺ على ما يؤول إلى التجسيم، وكلام ابن تيمية في هذا الحديث، وما استظهره من السِّر في التزامه ﷺ إرخاء العذبة هناك، قائلاً لتشريف ذلك المحل المجلل بوضع الحق يده عليه شهير مع استنكافهم عن القول بمقتضى وسط الحديث، وهو قوله في رواية: «**فتجلَّى لي علم كل شيءٍ**».

وقوله في الرِّواية الأخرى: «**فعلمت ما في السموات وما في الأرض**».

وقوله في الرِّواية الأخرى: «**فعلمت ما بين المشرق والمغرب**».

وقد علمت من مجموع ما سبق أن كونه ﷺ كان يعلم جميع ما يحدث بعده إلى قيام الساعة، وأخبر به أصحابه الكرام، وجليت له الأشياء، وعلم جميعها مما في السَّموات والأرض وغيرها، جاء عن عمر، وأبي سعيد، وحذيفة، والمغيرة بن شعبة، وأبي زيد بن أخطب، وأبي مريم، وابن مسعود، وأبي ذر، وأبي الدَّرداء، وأسامة، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وسمرة بن جندب، ومعاذ بن جبل، وثوبان وغيرهم.

فعلى مذهب من يعدّ كل ما رواه العشرة فما فوق متواترًا، ينبغي أن يعدَّ هذا من التواتر بالأحرى، ويأتي في حق منكره ما تقرر فيمن أنكر مقطوعًا به، والله أعلم.

وبذلك كله يتحقق لديك أن ما شذّ به طائفة من فقهاء متأخري الأحناف والمالكية من الجزم بكفر من قال: إنّ الأنبياء يعلمون ما كان وما يكون، مرادهم من قبل أنفسهم، أما بإعلام الله لهم فكيف يمكن أن ينكر أو يكفر القائل به مع ما سبق من المقدمة إلى هنا، وقد تقدَّم حديث ابن عمر: «**إنَّ الله تعالى قد رفع لي الدنيا، فأنا أنظر إليها وإلى ما هو كائنٌ فيها إلى يوم القيامة، كما أنظر إلى كفِّي هذه جليانًا، جلاَّه الله لي كما جلاَّها للأنبياء من قبلي**[1]».

---

(١) تقدم تخريجه.

وقد تقدَّم تبويب الترمذي باب ما أخبر به النبي ﷺ أصحابه إلى يوم القيامة، إلى غير ذلك مما لا يكفر القائل به إلا من لا يتشخص الفرق بين الإيمان والكفر، وله شهوة في إخراج المسلمين من دائرة الإيمان، نعوذ بالله من الخذلان، وفي النية إن شاء الله إفراد هذه المسألة بمؤلِف يحق الحق، ويبطل الباطل، ويكون قولاً فصلاً بين مؤلفات الفريقين إن شاء الله تعالى، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل آمين(١).

---

(١) فائدة عظيمة: قال الشيخ محمد بن جعفر الكتاني: وفي «شرح صلاة أبي الفتيان سيدي أحمد البدوي» للعارف بالله تعالى سيدي عبد الرحمن العيدروس لدى قوله فيها: وخزائن العلوم الاصطفائية بعد كلام له ما نصه: لطيفة: وقفت بعد كتابتي هذه التعليقة في كلام أبيض الوجه البكري تحت قوله ﷺ فتجلى لي كل شيء وعرفته ما حاصله أنه يمكن أن يكون ذلك التجلي ما هو الآن واقع بل وقع، ثم ألقى الله سبحانه عليه أستار العزة الإلهية، وأذهب بقاء ذلك منتقشا بصورته في لوح القوة الذاكرة النبوية أمامه لنواميس الربوبية وإرجاعاً إلى منازل العبودية، فيكون الكشف الأول لتكرمته ﷺ والحجب بعد ذلك لما قررناه الآن، على أنما أشرنا لعدم بقائه في الذاكرة فقط. انتهى الغرض منه.

وقد ذاكرني بعض الأصحاب في أنه يلزم أن يساوي علمه ﷺ علم الله تعالى إذا قلنا: إنه يعلم كل شيء. فأجبته بأنه لا يلزم شيء من ذلك، لأن ذلك لله تعالى بالأصالة، وله ﷺ بالتبعية، وكذا من علم شيئاً وأحاط به، فإنه بإعلام الله تعالى وتحويطه، فأعجبه هذا الجواب. انتهى منه بلفظه.

وفي كلام جامع ديوان الشيخ العالم العارف المحقق شرف الدين أبي حفص عمر بن علي السعدي المعروف بابن الفارض المصري نقلاً عن الشيخ الإمام برهان الدين إبراهيم بن عمرو الجعبري وهو من تلامذة ابن الفارض المذكور، وكان معه بمصر وقت احتضاره وانتقاله إلى الله تعالى قال: كنت سألت جماعة من الأولياء عن مسألة فلم يجبني أحد منهم عنها، فسألته – يعني ابن الفارض – فقلت له: يا سيدي هل أحاط أحد بالله علماً؟ قال: فنظر إلى نظر تعظيم لي وقال: نعم إذا حيطهم يحيطون يا إبراهيم وأنت منهم، انتهى.

وظاهر هذا حصول العلم بذاته تعالى بوصف من أوصافه على وجه الإحاطة حتى لغيره ﷺ من أعاظم الأولياء والصديقين، وهو مشكل مع قوله سبحانه ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ [طه: ١١٠] وقد اختلفوا في فهمه، فمنهم من قال: إنه محمول على الإحاطة الفرضية التقديرية على ما يأتي نقله عن العارف بالله سيدي عبد الوهاب الشعراني بناء على أن وقوع هذا ممكن لا الوقوعية، لأنه لم يسمع وقوع ذلك لأحد بوجه من الوجوه ولا في حال من الأحوال، ولكن النصوص الشرعية قاضية بالمنع من وقوع هذا وإمكانه معاً ما يأتي عن الشيخ الأكبر في ((فتوحاته)) أنه لم يكن في الإمكان أن يخلق الله تعالى فيما خلق قوة في موجود يحيط ذلك الموجود بالله علماً من حيث قيامها به.

وعليه فالأحسن حمله على الإحاطة النسبية المجازية، وهي المعرفة الكاملة كمالا يليق

بحال المخلوق لا الحقيقية، تعالى الله عنها علوا كبيرا، فإن الإجماع ممن يعتد به من المتكلمين والفقهاء ومعهم جميع العارفين والأولياء على أنها لم تقع ولا تقع لأحد مطلقاً ولو لأشرف الخلق ﷺ لا في الدنيا ولا في الآخرة كما يأتي بسطه إن شاء الله تعالى.

وقال بعض الإخوان في مذاكرة وقعت له معنا في هذا: إنه يمكن حمل الإحاطة في كلامه هذا على حصول الشبيه إذ هي التي يقصدها الصوفية كثيراً في كلامهم دون حضرة التنزيه، لأنه لا علم لأحد بها فضلاً عن الإحاطة، وهو كلام حسن.

وقال النابلسي في شرح هذا الديوان المسمى بـ «كشف السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض» جواب آخر نصه: نعم إذا حيّطهم بالتشديد جعلهم محيطين به علماً سبحانه وتعالى بأن أبهاهم في ظهور وجوده الحق بحيث لا يبقي منهم عندهم بقية وتضمحل رسومهم في حقيقته النورية بالكلية، فعند ذلك يحيطون به علماً، وإنما المحيط به مولاهم، وأما أنهم يبقون موجودين فالوهم عند نفوسهم، ومع ذلك يحيطون به علماً، فذلك من أعظم المحال، وليس لأحد أصلاً في ذلك مجال ولا يتصور عنه جواب ولا سؤال لأن الموجود عند نفسه قائم بالوهم المجرد، فلا يعرف نفسه، وإذا لم يعرف نفسه فلا يعرف ربه، وإذا لم يعرف ربه فليس بولي لله، وهذا السؤال سؤال الأولياء لبعضهم بعض، لا سؤال الغافلين للغافلين. انتهى المراد منه بلفظه.

قلت: في «شرحه اللامية» نقل كلام ابن الفارض هذا ثم قال: ولا يمنع من قولهم: إذا حيطهم يحيطون قوله تعالى ﴿وَلا يُحِيطُون بِهِ عِلْماً﴾ [طه:١١٠] وقوله سبحانه ﴿وَلا يُحِيطُون بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاّ بِمَا شَاء﴾ [البقرة:٢٥٥] يعني ما لم يحيطهم فيحيطون، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاّ بِإِذْنِهِ﴾ وأيضاً فإن المفهوم من قوله: إذا حيطهم بتشديد التحتية أنه إذا خلق لهم الإحاطة اللائقة بهم المخلوقة له اتصفوا بها فأحاطوا به، لا كإحاطته تعالى بنفسه، لأن إحاطته بنفسه قديمة، وإحاطتهم حادثة، والقديم منزه عن مشابهة الحوادث.

وإذا علم هذا كله فالأظهر هو تأويل كلام الأستاذ البكري أيضاً إما بمثل ما ذكره مولانا عبد الغني في جوابه أولا عن التحييط بأن يقال: إن الحق تعالى تجلى عليه بذاته وأفناه عنه وعن فنائه وجميع صفاته حتى اضمحلت رسومه وذهبت آثاره وعلومه، وغرق في أنوار ذات الحق، فصار عند ذلك مظهراً له تعالى عالماً بمعلوماته، وإنما العالم بذلك هو سبحانه لا غيره، وهذا التجلي كما سبق في كلام الأستاذ أبيض الوجه يمكن أن يكون ما هو واقع الآن، بل وقع تكرمة له ﷺ ثم ألقيت عليه أستار العزة الإلهية إقامة لنواميس الربوبية، وإرجاعاً إلى منازل العبودية، وإما بأن يقال: إنه أراد به أنه ﷺ كان يعلم جميع علم الله تعالى في خلقه، أو نقول في مكوناته لا أنه أراد جميع علمه مطلقاً حتى يشمل علوم الذات العلية بأسرها، ليكون كلامه هذا موافقا لكلام غيره من الأولياء: إن الله تعالى أطلعه على جميع علمه في مكوناته لا مطلقا كما يأتي عنهم، وليسلم من الاعتراض السابق عليه بلزوم التساوي بينه

وبين علم الله تعالى، وإن أجيب عنه كما مر، فإن الحق الذي عليه المعول أنه لا مساواة في شيء وبين الحادث وبين القديم الأول.

وأما قوله في الحديث: فتجلى لي كل شيء وعرفته. فيمكن تخصيصه أيضاً بالمكونات، وإذا عمم فيه فيحتمل في الذات العلية وأوصافها على ما مر، أو على ما يليق أن يعلمه أفضل مخلوق وأكمله من الخالق، والله أعلم.

وأما التكفير في هذه المسألة – أعني مسألة ادعاء الإحاطة في علمه ﷺ - فيبعد، ولا سيما في حق من أجمل في الكلام ولم يصرح بما يفيد العموم الحقيقي والمساواة لعلم الله تعالى وعلى فرض التصريح، فإنما يظهر لو ادعى أن ذلك حاصل له ﷺ من ذاته وبطريق الاستقلال، أو ادعى قدم علمه ﷺ أو حدوث علم الله تعالى أو تماثلهما في الحقيقة والذات، وهذا لا يدعيه أحد ممن ذكر، ولا يتفوه به، بل ينكره أشد الإنكار، ويكفر القائل به إذا عرض عليه، فإن قيل: بعض هذا لازم من قولهم.

قلنا: لا نسلم اللزوم كما سبق بيانه، وعلى تسليمه فهو بعيد لمن قال ولازم القول لا يعد قولا إلا إذا كان اللزوم بيّنًا، وهو هنا غير بين، وحينئذٍ فلا يكفر في هذه المسألة بالنسبة لما ذكر أصلاً، فاعرف ذلك وتبينه، وأعرض عما سواه، وربنا سبحانه وتعالى يمن علينا وعليك برضاه، آمين.

وأفتى بالثالث - وهو أن علمه ﷺ محيط بالأشياء ولكن لا كإحاطة علم الله تعالى – جماعة ممن نحا نحو التوسط والجمع بين النصوص والأدلة، وقالوا: إن هذا هو التحقيق وما سواه خلافه، ومما يدل له ما ذكره الشيخ الأكبر في «فتوحاته» في الباب الخامس والستين وثلاثمائة ونصه: وما ذكر عن أحد من نبي ولا حكيم أنه أحاط علماً بما يحوي عليه حاله في كل نفس إلى حين موته، بل يعلم بعضاً ولا يعلم بعضاً إلى أن قال: فلا يعلم الأمور على التفصيل إلا الله وحده ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:٢٥٥] انتهى منه بلفظه.

وما ذكره في الباب التاسع والستين وثلاثمائة ونصه: لا يعلم الشيء من جميع وجوهه إلا الله، المحيط علمه بكل شيء سواء كان الشيء فانيا أو موجودا متناهيا أو غير متناهٍ. انتهى.

وما ذكره في الباب الرابع والتسعين وثلاثمائة ونصه: ثم إنك إذا أخذت تفصل بالحدود أعيان الموجودات وجدتها بالتفصيل نسبياً وبالمجموع أمراً وجودياً لا يمكن لمخلوق أن يعلم صورة الأمر فيهما، فلا علم لمخلوق مما سوى الله ولا للعقل الأول أن يعقل كيفية اجتماع نسب يكون عن اجتماعها عين وجودية مستقلة في الظهور، غير مستقلة في الغني مفتقرة بالإمكان المحكوم عليها به، وهذا علم لا يعلمه إلا الله تعالى وليس في الإمكان أن يعلمه غير الله تعالى ولا يقبل التعليم – أعني أن يعلمه الله مرسلاً من عباده – فأشبه العلم به العلم بذات الحق، والعلم بذات الحق محال حصوله لغير الله تعالى فمن المحال حصول العلم بالعالم أو بالإنسان نفسه، أو بنفس كل شيء لنفسه بغير الله تعالى فتفهم هذه المسألة،

فإني ما سمعت ولا علمت أن أحداً نبه عليها، وإن كان فهمها مما يستصعبه التصور، مع أن فحول العلماء يقولون بها ولا يعلمون له سر كبلقيس تقول: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ [النمل:٤٢] وهو هو. انتهى منه بلفظه.

وما ذكره في الباب الثامن والسبعين ومائة في الفصل الحادي عشر في الاسم الإلهي عند تعرضه لآية: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩] ونصه: والسبب الموجب للمشورة كون الحق له وجه خاص في كل موجود لا يكون لغير ذلك الموجود، فقد يلقي إليه الحق سبحانه في أمرها ما لا يلقيه لمن هو أعلى منه طبقة، كعلم الأسماء لآدم مع كون الملأ الأعلى عند الله أشرف منه، ومع هذا فكان عند آدم ما لم يكن عندهم، إلى أن قال: وسبب ذلك قومية الألوهية ما تستحقه لما علم أن لله تعالى في كل موجود وجها خاصا يلقي إليه منه ما يشاء مما لا يكون لغيره من الوجود، ومن ذلك الوجه يفتقر كل موجود إليه وإن كان عن سبب، انتهى.

وما ذكره العارف بالله سيدي عبد الوهاب الشعراني في «المنن الكبرى» آخر الجزء الأول في منة كثرة تصديقه للأولياء فيما يدعونه من الاطلاع على المغيبات في آخرها ونصه: وبالجملة فلله تعالى في كل علم وعمل وغيرهما من سائر المخلوقات علم خاص لا سبيل لأحد من المخلوقين إلى الوصول إليه، لأنه من صفات الألوهية، انتهى.

وما ذكره أيضاً في «العهود المحمدية» في عهد أن نميط الأذى عن طريق المسلمين بعد ما ذكر أنه لا بد من السلوك على يد شيخ عارف بالله إلى أعلى معرفة منه لإزالة الشبهة العارضة لسالك طريق الآخرة في عقائده ونصه: وقد وضعت في ذلك ميزانا نحو كراسة أزلت به غالب الإشكالات التي في مذاهب الفرق الإسلامية كالجبرية والمعتزلة، ووضعت ميزاناً أخرى تزيل الشبه التي تعرض للعبد في طريق المعرفة بالله تعالى حاصلها أن الله تعالى لم يكلف عبداً بأن يعرف الله تعالى كما يعرف الله نفسه أبداً، وإن لله تعالى بنفسه علماً اختص به لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل، لأنهم لو علموه لساووه في العلم، ولا قائل بذلك من جميع الملل فضلاً عن دين الإسلام، وذلك أن الله تعالى لا يتحد مع عبده في حد ولا حقيقة ولا فصل ولا جنس، فردّ يا أخي جميع ما ورد في الآيات والأخبار من التنزيه إلى مرتبة علمه تعالى بنفسه، وردّ جميع ما ورد في الآيات والأخبار من الصفات التي ظاهرها التشبيه إلى مرتبة علم خلقه تعالى به، فما أحوج الناس إلى التأويل إلا ظنهم بأن الله تعالى كلفهم بتعقل مرتبة التنزيه التي لا يتعقلونها، وإلا فلو علموا أنها خاصة به تعالى ما أولوا شيئاً، وكان يكفيهم الإيمان بأنه ليس كمثله شيء. انتهى منه بلفظه.

وأفتى بالرابع – وهو التوقف – جماعة من المتورعين ممن تعارضت عندهم الأدلة في هذه المسألة، ولم يقفوا فيها على نص غير محتمل يقطع النزاع ويرفع الخلاف، وقالوا: إن القطع فيها بأمر يخاف أن يوقع في أحد شيئين: إما في استنزال سيد الكائنات ﷺ عن قدره الرفيع وجنابه العلي المنيع، وإما في سوء الأدب مع الله تعالى بتسوية بعض مخلوقاته به، وذلك

أيضاً يسوء المصطفى ﷺ ويؤذيه، ولذا حذر من مثله في قوله: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله». وحينئذ فالتوقف وتفويض الأمر إلى الله تعالى فيها أولى وأسلم في عاقبة المرء، ورد الأمر إلى الله تعالى في مواطن الاشتباه من العلم ومن الرأي السديد في الدين. هذا مع اعتقاد أنه عليه الصلاة والسلام نال من ربه المكانة التي لا مكانة فوقها والرتبة التي لا يمكن أن ينالها بشر ومخلوق سواه، وأنه سيد الكائنات، ومفخر أهل الأرض والسموات، ونقطة الكون، وعروس المملكة، وأصل الوجود، ومادة كل موجود ﷺ، وممن نحا إلى هذا صاحب «نشر المثاني في أهل القرن الحادي والثاني» وهو الشيخ أبو عبد الله محمد بن الطيب القادري الحسيني الفاسي، وذلك في ترجمة التاجموعتي بعدما ذكر كلامًا له في هذه المسألة يصحح فيه رأيه فيها ويرد القول بخلافه ونصه: ولا خلاف بينه وبين من حاجه من أهل فاس في أنه ﷺ يعلم كثيراً من الغيب مما يتعلق بالدنيا والآخرة، ويعلم جميع ما دلت على علمه هذه الأحاديث – أي: المذكورة في كلامه – وأكثر من ذلك، لأنها لا تدل على الإحاطة بالمعلومات، ثم قال: وإنما نزاع من نازع في القدر الزائد على ذلك، والله أعلم.

ثم الإمساك عن الخوض في هذا الزائد أحسن، لأنه لم ينقل لنا كلام عن أسلافنا فيه، والله أعلم، مع اعتقاد أنه ﷺ بأعلى درجات الكمال في الدرجة التي لا درجة فوقها، وأنه ﷺ سيد الأولين والآخرين، ولا يعلم قدره إلا خالقه رب العالمين، قال في «محصل المقاصد»:

نبينا أفضل بالإطلاق   من كل مخلوق على الإطلاق

فهذه أقوال أربعة، وهي وقفنا عليها لساداتنا العلماء رضوان الله عليهم في هذه المسألة، والأخير منها وهو الوقف أحوط وأورع وأسلم، والثالث بالتوسط أحسن وأبين وأقوم، والثاني بعدم الإحاطة لأحد إلا لله تعالى أجري على ظواهر أكثر النصوص الشرعية وأوفق، بقاعدة سد الذرائع المرعية، والرابع بالإحاطة محتمل لوجوه:

أحدها: أن يريد قائله الإحاطة الحقيقية الكلية في كل شيء حتى في الذات العلية، وهذا هو محط التهويل والإنكار، ومحل اختلاف الأذهان والأفكار.

الثاني: أن يريد به الإحاطة المجازية الإجمالية دون الحقيقة التفصيلية، وهذا يرجع للقول الثالث.

الثالث: أن يريد به الإحاطة الإضافية باعتبار نوع أو جنس من الأجناس الكونية، إلا أنه لم يقع منه له بيان اتكالا على الأذهان، ولا بد حينئذ من معرفته ليقع الحكم بحسبه على كليته، وإلا فهو كلام مجهول، لا يرجع منه إلى شيء محصول، ولكل أناس مشربهم، وكل ما اختار بحسب ما أودعه الله في قلبه من الأنوار ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّك وَمَا كَان عَطَاءُ رَبِّك مَحْظُوراً﴾ [الإسراء:٢٠]. وقد بقي في المسألة قول آخر خامس لم يذكره أهل الظاهر، وذكره جماعة من الأفراد الأكابر، وهو أن علمه ﷺ يحيط بجميع المكنونات وسائر ما أوجده الله من الذوات، فالذوات من الأزل إلى الأبد عرشا وفرشا وما فوقهما وما

وهذا حين الشروع في المقصود، مستعينًا بالرب المعبود، فأقول:

* * *

تحتهما وما بينهما لا يشذ عن علمه شيء من ذلك، ولا ما يعرض له من ابتدائه إلى انتهائه، وأما الذات العلية وأوصافها وأسماؤها فما حصل له ﷺ من العلم بها لم يحصل لبشر ولا مخلوق سواه، ولم يشم أكابر الأنبياء والرسل والمقربون من الملائكة رائحته، فضلا عمن دونهم.

وأما معرفة كنهها أو الإحاطة بها أو بشيء مما لها فليست لأحد أصلاً، ولا مطمع لمخلوق فيها بوجه من الوجوه، ولا باعتبار من الاعتبارات، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ومستندهم في هذا الكشف والبصيرة وما أمدهم الله به من الفراسة وصدق السريرة، مع ما يؤيد ذلك من الأحاديث والأخبار، ويؤكده من الإشارات الجليلة المقدار.

وقد خرج أنها أقاويل خمسة، وأن الثلاثة المتوسطة منها مقبولة عند العلماء، والأول مردود عند أكثر العارفين والفقهاء، والأخير هو المعول عليه عند كثير من أهل الله، كما يأتي بسطه بحول الله.

وإذا تقرر هذا وعلم، وتأمل وفهم، فلننشر بعده لما عثرنا عليه في المسألة من الآيات والأخبار والآثار، وما يتعلق بها من كلام الأئمة النظار، حتى تتبين أدلتها وتتضح لكل ذي بصر محجتها، وتزداد الأقاويل بها بيانا والقوة فيها قوة وبرهانا، ونختم بكلام أهل البصائر من الأولياء والصلحاء الأكابر، لأن كلامهم في هذا الباب هو الذي عليه المدار، وهو أولى بالاعتماد عليه والتعويل والاعتبار لصدق فراستهم ونورانية بصيرتهم.

الباب الأول

في الأخبار الصحيحة، والإشارات الصريحة المنبأة بظهور سكة الحديد في أواخر الأزمان والأعوام بعد مرور العصور والأيام

قد وردت في ذلك أحاديث من الصحاح، طريق استنتاج ما ذُكر منها واضحٌ لدى أهل النجاح، وربما يكون لبعض ما تراه في هذا الباب كالتي بعدها من الأحاديث معانٍ غير ما أخذت منها، فلا تتسارع لإنكار ذلك من أول وهلة، فلا تذهل عن كون كلام النبي ﷺ من أجمع الجوامع، ولكل حكمةٍ من الكلم الشّاملة لكل خيرٍ نافع، بحيث ربما يمر علينا اللفظ من كلامه ﷺ فنجده ظاهرًا في معنى، ثم تقرؤه مرة أخرى فتجده يلوح منه معنى آخر، وهكذا فلا تنقضي عجائبه على طول الأزمان وبُعد الأيام، يعلم هذا كل واسع العلم، ريّان بالإدراك والفهم، جعلنا الله منهم آمين.

ولما تكلم الإمام ابن عطاء الله في كتابه: «التنوير» على قوله ﷺ: «**فاتّقوا الله وأجملوا في الطلب**[1]» بعشرة أوجه، قال ما نصّه: فهذه عشرة أوجه، وليس الحصر فيها، بل الأمر أوسع من ذلك، ولكن بحسب ما ناول الغيب وأنعم به المولى سبحانه، وهو كلام صاحب الأنوار المحيطة، فما يأخذ الآخذ منه إلا على حسب نوره، ولا يأخذ من جواهر بحره إلا على قدر غوصه، وكلٌّ يأخذ على حسب مقامه، قال تعالى: ﴿**وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ**﴾ [الرعد:٤]، وما لم يأخذوا أكثر، فلو عبر العلماء بالله أبد الآباد عن أسرار الكلمة الواحدة من كلامه لم يحيطوا بها علمًا.

الحديث الأول: وفي ضمنه أحاديث من معناه [دلالته على تقارب الزمان]

حدَّثنا شيخنا الإمام والدي الشيخ أبو المكارم عبد الكبير بن محمد الكتاني الحسني سماعًا، قال: حدَّثنا شيخنا محدث المدينة عبد الغني بن أبي سعيد الدهلي عن أبي زاهر إسماعيل بن إدريس الرومي المدني ح.

وأخبرنا به كتابةً المعمَّر العلامة نور الحسنين بن المنلا محمد مبين بن المنلا حيدر الأنصاري الحيدرأبادي كتابةً من الهند عن قاضي مكة عبد الحفيظ بن

---

(١) رواه ابن ماجه (٧٢٥/٢)، وابن أبي شيبة في المصنف (٧٩/٧)، والبيهقي في الشعب (٧٢/٢).

درويش العجمي، كلاهما عن محمد طاهر سنبل، عن أبيه محمد سعيد، أنا الشهاب أحمد بن النخلي المكي، عن الحافظ محمد بن علاء الدّين البابلي، عن سالم بن محمد السّنهوري أنا النجم محمد بن أحمد الغيطي، أنا القاضي زكريا الأنصاري، عن الحافظ أبي الفضل أحمد بن علي، أنا أبو إسحاق إبراهيم البعلي، عن مسند الدّنيا أحمد بن أبي طالب الحجّار، أنا الحسين بن مبارك الزبيدي، عن أبي الوقت عبد الأول بن عيسى السّجزي، عن الداوودي، أنا السرخسي، أنا محمد بن يوسف، أنا شيخ الإسلام محمد بن إسماعيل قال في كتاب الفتن في صحيحه باب ظهور الفتن:

حدَّثنا عياش بن الوليد، أنا عبد الأعلى، حدَّثنا معمر عن الزهري، عن سعيد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**يتقارب الزمان، وينقص العمل**[1]» الحديث.

وبه إلى البخاري أيضًا في بابٍ بعد باب تغير الزمان حتى يعبد الأوثان، من كتاب الفتن أيضًا:

حدَّثنا أبو اليمان، حدَّثنا شعيب قال: حدَّثنا أبو الزِّناد عن عبد الرحمن، عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان، تكون بينهما مقتلة عظيمة، دعوتهما واحدة، وحتى يُبعث دجالون كذّابون قريب من ثلاثين، كلّهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يُقبض العلم، وتكثر الزّلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج وهو القتل، ويكثر فيكم المال...**[2]» الحديث بطوله.

وهذا من أفراد البخاري عن مسلم. وقد ذهل الحافظ الأسيوطي فعزى حديث الإخبار بتقارب الزّمان للترمذي خاصةً في مناهل الصفا، مع أنه كما علمت في الصحيح وغيره.

حديث ثانٍ من معناه:

قال الإمام أحمد في مسنده: حدَّثنا علي بن حفص، أنا ورقاء عن أبي الزِّناد عن الأعرج، عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى يُقبض العلم، ويتقارب الزّمان، وتكثر الزلازل، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج**».

---

(١) رواه البخاري (٥/٢٢٤٥).

(٢) رواه البخاري (٦/٢٦٠٥)، ومسلم (٤/٢٢١٤)، وأحمد (٢/٣١٣).

قال: الهرج أيما هو يا رسول الله؟ قال: «القتل القتل[1]».

وفي المسند أيضًا حدَّثنا هاشم، حدَّثنا زهير سهيل عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزّمان، فتكون السّنة كالشهر، ويكون الشّهر كالجمعة، وتكون الجمعة كاليوم، ويكون اليوم كالسّاعة، وتكون الساعة كاحتراق السّعفة**[2]».

زعم سهيل: أي أغصان النخّل، وقيل: إذا يبست سُميت: سعفة، وإذا كانت رطبة فهي شطبة. قاله ابن الأثير.

وقد أخرج أحمد أيضًا، والترمذي من حديث أنس ﷺ بوَّب عليه الأخير في أبواب الزهد فقال: ما جاء في تقارب الزمان، وقال عقبة: حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه[3].

---

(١) رواه البخاري (١/٣٥٠)، وأحمد (٢/٢٥٧).

(٢) رواه أحمد (٢/٥٣٧)، وابن حبان في صحيحه (١٥/٢٥٦).

(٣) فائدة: قال الشيخ حسن الحمزاوي العدوي: اعلم أن أشراط الساعة كثيرة جدًّا أوصلها بعضهم إلى خمسمائة.

فمنها: بعثة النبي ﷺ؛ لقوله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين، وأشار بالسبابة والوسطى».

ومنها: قبض العلم بموت أهله، وظهور الجهل، وكثرة الزنا، ومعاملة الناس بالربا، وكثرة الزلازل، وانشقاق القمر، ورجم الشياطين من السماء، وتأمين الخائن، وتخوين الأمين، وكثرة العقوق، وإمارة الصبيان، والتطاول في البنيان، وفساد البلدان، وكثرة الفتن فيها انتهى. نفراوي.

ومنها: أن يُشرب الخمر، وتكثر النساء وتقل الرجال، حتى يكون للخمسين امرأة قيم واحد: أي رئيس، ومنها رفع الأسافل، قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع ابن لكع»، يعني بذلك السفلة من الناس، وفي الحديث: «ما من عامٍ إلاَّ والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم».

وذكر العارف الشعراني قال: روى الترمذي عن علي ﷺ قال: قال رسول الله: «إذا فعلت أمتي خمسة عشر حلَّ بها البلاء، قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: إذا كان المغنم دولاً، والأمانة مغنمًا، والزكاة مغرمًا، وأطاع الرجل زوجته، وعق أمه، وجفا أباه، وارتفعت الأصوات في المساجد، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأُكرم الرجل مخافة شره، وشُربت الخمور، ولبس الحرير، واتُّخذت القينات والمعازف، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فليرتقبوا عند ذلك ريحًا حمراء أو خسفًا أو مسخًا».

قال: وزاد في روايةٍ أخرى على الخمسة عشر: «ويتعلم العلم لغير الدين، وساد القبيلة

[بيان معنى تقارب الزّمان]

قلت: ومن حديث أبي هريرة أيضًا أخرجه أبو نعيم في الحلية وأبو يعلى، وجاء أيضًا من حديث أبي موسى عند الطبراني، ومن حديث أبي سعيد الخدري وغيره، وأحاديث تقارب الزمان متكاثرة، وقد اختلف في معناها على أقوالٍ:

فاسقهم، وكان زعيم القوم أرذلهم».

وفي رواية أبي العالية: «لا تقوم الساعة حتى يمشي إبليس لعنه الله في الطرق والأسواق ويقول: حدَّثني فلان عن رسول الله ﷺ بكذا وكذا افتراءً وكذبًا» انتهى. من تحفة الإخوان.

ومن علامتها أيضًا: جور الحكام، وعدم النصفة في الأحكام، وكثرة المظالم، وارتكاب المآثم، وقلة الأمانات، وكثرة الخيانات، وقلة العلماء، وكثرة الجهَّال، ففي الحديث: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ولكن بموت العلماء، حتى إذا لم يبقَ عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً، فأفتوا بغير علمٍ فضلوا وأضلوا».

ومنها: كساد الأسواق، وقلة البركة في الأرزاق، وكثرة الشكاية من الناس، قلَّ من تجده إلا ويظهر لك الشكوى وعنده ما يكفيه.

ومنها: كثرة الربا، وإفشاؤه في المعاملات، فتجد غالب الفجَّار يعطي العشرة بخمسة عشر، وما كثر وما قل، ففي حديث: «لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض بيت إلا دخله الربا، إن لم يصبه منه أصابه من غباره، أو من صاحبه، أو صديقه، أو قريبه».

ومنها: اتخاذ القرآن مغنى يُغنى به في صدور المجالس والأسواق والقهاوي.

ومنها: عمارة القهاوي أكثر من المساجد التي هي محل العبادة والذكر والفوائد، والقهاوي محل الغيبة والنميمة والمفاسد.

ومنها: ما حدث في هذا الزمان من شرب الدخان، فإنها بدعة منكرة في سائر الأديان؛ لأنه يلهي عن ذكر الله الواحد الديَّان انتهى.

وقال المحقق العلامة الأمير في مجموعه: القهوة والدخان تعتريهما الأحكام الخمسة بحسب الأشخاص، تحريمًا ووجوبًا وكراهةً وندبًا وإباحةً انتهى.

وهذا لا ينافي كونه بدعة من علامات الساعة، ومنها أخذ الرشوة على الحكم حتى لو جاء الخصمان إلى الحاكم، أحدهما على الحق والآخر على الباطل، فوعده الذي على الباطل بالرشوة لمالٍ معه وترك الحق، وعلى هذا جاء الحديث: «القضاة ثلاثة: قاضٍ في الجنة، وقاضيان في النار».

ومنها: انقلاب الشتاء صيفًا، والصيف شتاءً، والتكالب على الدنيا وترك الآخرة.

وهذه بعض العلامات الصغرى ومنها: رفع الأصوات في المساجد ولو بالعلم؛ لقول مالك: ما للعلم ورفع الصوت، وتعليم العلم لغير الدين، وإطاعة الرجل امرأته، وإقصاؤه أباه وأمه.

وهذه بعض العلامات الصغرى وإلا فقد وصل عدّها إلى خمسمائة.

قال في النِّهاية: أي يطيب الزّمان حتى لا يُستطال، وأيام السّرور قصيرة، وقيل: هو كناية عن قصر الأعمار وقلّة البركة انتهى.

وقال ابن رشد من سماع أشهب بن عبد العزيز عن مالك بن أنس: معنى تقارب الزّمان: سرعة ذهابه فيما يخيّل للناس.

وقال الطيبي في شرح المشكاة: وقيل: أي تقارب أهل الزمان بعضهم بعضًا في الشر، أو أراد مقاربة الزمان نفسه في الشر حتى ينسيه أوله آخره، أو مسارعة الدُّول إلى الانقضاء، والقرون إلى الانقضاء، فيتقارب زمانهم وتتدانى أيامهم.

وقال النووي: المراد بالتقارب قرب القيامة.

قال في مجمع البحار: وتعقب بأنه من أشراط السّاعة، فيصير المعنى أشراط السّاعة أن تقرب.

وقال الكرماني: وقيل: لكثرة اهتمام النّاس بالنّوازل والشّدائد، وشغل قلبهم بالفتن لا يدرون كيف تنقضي أيامهم، والحمل على أيام المهدي وطيب العيش لا يناسبه إخوانه من ظهور الفتن.

قيل: إنما أوَّله بهذا إذا لم يقع نقصٌ في زمانه، وإلا فقد وجدنا في زماننا هذا من سرعة الأيام ما لم نكن نجده من قبل، وإن لم يكن هناك عيشٌ مستلذٌّ.

وقيل: إنّ المراد نزع البركة من كل شيءٍ في الزمان.

وقيل: بمعنى عدم ازدياد ساعات الليل والنهار، وانتقاصها بأن يتساويا طولاً وقصرًا.

وفي عون الباري[1]: ويتقارب الزمان عند نزول المهدي لوقوع الأمن في الأرض، فيستلذ العيش عند ذلك لانبساط عدله، فتستقصر مدته؛ لأنهم يستقصرون مدة أيام الرّخاء وإن طالت، إلى غير ذلك من الأقوال التي أطال بتقريرها شروح الصحيحين وغيرهما.

* * *

[بيان الجمع بين الأقوال في معنى تقارب الزّمان]

وأقول والله المستعان: قد حكيت لك هذه الأقوال من غير تفصيلٍ للأحوال،

---

(١) شرح مختصر الزبيدي للبخاري للعلامة القنوجي، تحت قيد الطبع بتحقيقنا.

ومن أراد الجمع بين كل ما قيل، فليعلم أنّ تقارب الزّمان يختلف باختلاف الأوقات والأزمان، ففي كل زمانٍ يقتضي ما يظهر فيه أن يفسر هذا الحديث بتفسير يناسبه، كوقت ظهور الدّجال يُفسر بقصر الزّمان إذا ذاك عن الأزمان التي قبله، وقد يُحمل على ذلك من المعاني السّابقة.

وقد قال الشمس محمد بن عبد الرسول البرزنجي في كتابه: «الإشاعة في أشراط الساعة» حين ذكر تقارب الزّمان مرة من بعد مرةٍ ما نصَّه:

«وقد مرَّ في بحث الدّجال أنّ هذا يصير في زمانه أيضًا، ولا مانع من تكرره مرتين، فمرة في زمانه، ومرة أخرى في آخر الزّمان، فالقدرة صالحة لكل شيء» انتهى.

وقال في محلٍّ آخر: «يكون تقارب الزمان وتقاصر الأيام مرتين، مرة في زمن الدّجال، ثم ترجع بركة الأرض وطول الأيام إلى حالها، ثم تتناقص بعد موت عيسى إلى أنّ تصير في آخر الدنيا إلى ما ذكر» انتهى.

وأما حمله على ما يقتضيه الحال الآن، فإنك إذا تشخّصت ما وقع الآن من تقارب البلدان، وسرعة وصول الأخبار، وتبليغ ما تشاء لمن تشاء في أقرب وقتٍ مما كان آباؤنا قبل لا يصلونه إلا بعد الأعوام الطوال، والأيام الخوال، علمت وتيقنت، ووجدت وتحققت، أنّه لا بُعد في أن يُحمل أخبار المصطفى ﷺ بتقارب الزّمان آخر الأعصار، على تقارب أهل الزّمان، وذلك بسرعة وصول بعضهم لبعض، وقرب بلوغ خبر هذا الإقليم لهذا، فالمشاهدة والعيان أيّدت فهمنا لهذه الأحاديث، وقامت لنا أعظم تبيان، ويؤيد أن المصطفى أراد بتقارب الزّمان تقارب أهل الزّمان تمام الحديث عند أحمد: «**فتكون السّنة**»: أي ممن قبلنا قبل تقارب الزّمان «**كالشّهر**» منّا الآن، فيكون من باب التّشبيه المعكوس.

ثُمّ قال: «**ويكون الشّهر كالجمعة، وتكون الجمعة كاليوم، ويكون اليوم كالسّاعة**»، فإنّ هذا مشاهدٌ الآن في سكّة الحديد، فإن سفر سنة كاملة على الدّواب أو الجمال يعادل سفر شهر على سكّة الحديد الآن، وسفر شهر على الجمال أو غيرها يعادله سفر جمعة على السكة أيضًا، وهكذا سنة بشهرٍ، وشهر بجمعة، وجمعة بيوم، ويوم بساعة، وساعة بلحظة، خصوصًا الرِّواية الآتية في الحديث الثاني التي فيها: «**ويتقارب الأسواق**» فإنه ليس لتقاربها معنى غير ما ذُكر.

[بيان التقارب الحسِّي والمعنوي للأزمان]

وفي شرح الشيخ عبد القادر الراشدي المجاجي على الأحاديث التي انتقاها ابن أبي جمرة من الصحيح بعد ذكره اختلاف الشارحين في معنى تقارب الزَّمان.

والصحيح من هذا كلّه ما رُوي عن النبي ﷺ: «**يتقارب الزّمان، فتكون السنة كالشهر، والشهر كالجمعة**» إلخ.

وانظر المراد بكون السنة كالشَّهر، والشّهر كالجمعة، هل هو حسِّي أو معنوي، فإن كان الثاني فهو موجودٌ الآن انتهى.

قلت: فالصواب إرادة كل منهما، فيكون معناه الحسِّي ما ذُكر من تقارب أهل الزّمان، حتى يصل الرجل الآن إلى صاحبه أو إلى بلدة يريدها في شهرٍ، إن كان قبل يصل إليه في مدة سنة وهكذا.

واعتبر إذا شئت ما يحدثك به من طعن فى السِّن من أهل بلادك ممن حجّ قبل برًّا على طريق الصحراء عن الشدائد الكبيرة التي لقوها في الشهور الكثيرة حالة ذهابهم إلى الحجاز، بل ربما كان الحاج تمضي له عن أهله السنتان أو أكثر مع ما تجده من نفسك الآن، ومن غيرك مما حج أو زار من الوصول إلى مكة أو المدينة بعد الخروج من فاس في أقلِّ من شهرٍ، كل هذه التسهيلات بواسطة سكة الحديد، والوابور البخاري، مع السِّلك التلغرافي، الذي يعجل بوصول الأخبار من إقليمٍ إلى إقليمٍ في أقلِّ من رمشة عين.

***

[المسافة بين بيت المقدس ومصر]

وقد تلخص لي من كلام رحالة المغرب أبي سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العيَّاشي كما في رحلته: «**ماء الموائد**» أن مدة سفره من بيت المقدس إلى مصر كانت نحوًا من شهر برًّا وبحرًا، فأصبحت اليوم هذه المسافة الطويلة تُقدَّر بيومٍ وليلةٍ، وذلك أني لما زرت بيت المقدس سنة أربع وعشرين بعد ثلاثمائة وألف، خرجت منه صبيحة يوم الإثنين ثالث عشر ربيع الأول من السنة المذكورة على سكة الحديد، فوصلت إلى (رملة) فلسطين قبل الزوال، ومكثت بها عدَّة ساعات لقيت فيها علماءها، وطفت على مساجدها، ثم خرجت منها قبل العصر إلى ثغر (يافا) فوصلتها قبل المغرب، ومن الغد إلى غروب الشمس ركبت وابور البحر إلى (بورت

سعيد)، فوصلناه في شروق الغد، فبعد الاستراحة كتبت في التلغراف بيتين من إنشاء بعض رفاقنا، لصاحبنا ومن كنّا عنده نزلنا، وهو العلاّمة محيي موات مذهب الإمام المطلبي السيد أحمد بك الحسيني نسبًا ولقبًا:

كل الفروضِ قَدْ انقضت وتكمّلت غير الرُّجوع لبيتِكَ المعمور

قَدْ سرت نحوك في صبيحة يومنا بالرّتل منشرحًا بكلِّ سرور

ثم ركبت سكة الحديد المدعوة بالرتل أيضًا إلى مصر، فوصلناها مع الزوال، فوجدت السيد الحسيني بحلوان، فأنشدته إياهما من مصر في التليفون، فسمعت جوابه من حلوان، فكانت مدة المسافة من بين بيت المقدس ومصر أقل من يومٍ وليلةٍ بالسَّير المتصل، فهل هناك من تقارب بين أهل الزمان أكثر من هذا.

* * *

[بيان المراد من تقارب الزمان]

وقد ذكر كل من كتب على هذا الحديث القول بأن المراد بتقارب الزمان تقارب أهله بعضهم بعضًا، بل صدّر به حين حكى الاختلاف في معنى الحديث خاتمة الحفّاظ بالمغرب أبو العلاء إدريس بن محمد بن إدريس العراقي في شرح مشارق الصغاني وقال: إنه اختيار الطحاوي، ثم نقل عن ابن أبي جمرة ما نصّه:

«القصر يحتمل أن يكون حسيًّا، ويحتمل أن يكون معنويًّا، أما الحسي فلم يظهر بعد، ولعله من الأمور التي تكون قرب الساعة»، ثم قرّر وجود القصر المعنوي، وهو آيل إلى قلّة البركة.

قال أبو العلاء العراقي بعد نقله تقريره: وما أشار إليه من أنّ الحسي لم يقع هو كما قال، وقد وقع الآن كما هو مشاهد.

وقد زاد العارف ابن أبي جمرة كما في بهجة النفوس له بعد تقريره في تقارب الزمان الوجهين، التقارب الحسي أو المعنوي ما نصّه:

«ولعله ﷺ عني بذلك الوجهين معًا، فيكون الواحد وهو المعنوي قد ظهر، وبقي الآخر وهو الحسي حتى يتصل وقته مع ما بقي من الشروط) انتهى.

قلت: وهذا الظاهر؛ لأن كلامه ﷺ واسع جدًّا، يفهم منه الأوائل والأواخر معاني كأمواج البحار، بحسب ما يطبقون على أحوالهم في دنياهم وأخراهم، وما يبقى

أكثر؛ لقوله: «أُوتيت جوامع الكلم، واختصر لي الكلام اختصارًا[1]».

[بيان أن فهم النصوص يتغير بتغير الأعصار]

وقد حدَّث ﷺ أصحابه الكرام بأشياءٍ لم يفهموا لها معنى حتى ظهرت في الخارج، فحملوا الأخبار على ذلك الأمر المشاهد، وعدّوه من المعجزات.

فمن ذلك ما أخرج ابن عساكر عن نبيط الأشجعي قال: لما نسخ عثمان المصاحب قال له أبو هريرة: أصبت ووُفقت، أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ أشدَّ النَّاس لي حبًّا، قوم يأتون من بعدي، يؤمنون بي ولم يروني، ويعملون بما في الورق المعلَّق**[2]».

فقلت: أيّ ورق؟ حتى رأيت المصاحف، فأعجب ذلك عثمان، وأمر لأبي هريرة بعشرة آلاف درهم، وقال: والله ما علمت أنك لتحبس علينا حديث نبينا.

وهكذا لو حدث ما حدث في عصرنا في زمن من سبق من الشَّارحين لحملوا هذه الأحاديث على ما حملناها عليه.

وإذا كانت الأحكام كما قرر الفقهاء تتغير بتغير الأعصار والأعراف والبلدان والأحوال[3].

فكيف لا يكون ذلك في فهم النصوص، وما المانع من حمل ما ورد على ما يحتمله وتؤيده المشاهدة، وليس فيه نسخ لشريعة، ولا مسخ لنصوصها، ولا قلب لحقائقها، بل فيه تضمن معجزات، وآيات بينات للمنزل عليه الكتاب المبين، سيدنا محمد الصادق الأمين ﷺ وعلى آله وأصحابه.

[بيان دلالة تقارب الزمان على ظهور سكة الحديد]

فأحاديث تقارب الزمان عندي من النصوص الصريحة، والأخبار التي ليست

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٢/١٦٠)، وقال ابن دحية في منتهى السول: ولئن كانت معجزة آدم بين ملائكة السماء ما عُلِّم من الأسماء فلقد أوتي محمد ﷺ جوامع الكَلِم، واختُصر له القول اختصارًا وأيُّ اختصار ونُصر ببلاغةِ القرآن على البلغاء انتصارًا وأي انتصار. (ص٥٢) بتحقيقنا.

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٨/٢٥٥)، والبزار في مسنده (١/٤١٣)، وأبو يعلى في مسنده (١/١٤٧)، بنحوه.

(٣) انظر في هذه المسألة الأصولية: إجمال الإصابة للعلائي (ص٢٨)، والإبهاج (٢/٣٥٧)، وإرشاد الفحول (١/١٠١، ١٠٩).

بمستعجمة، بل بالإفصاح فصيحة عن ظهور سكة الحديد آخر الزمان، وقد ظهرت في هذا العصر والأوان، بل الحديث شامل لغيرها من الواردات النارية، البحرية والجوية كما علمت، بل والتلغرافات السلكية واللاسلكية، وغيرها مما يقرِّب الأخبار بسرعة، فهذا حديثٌ في صحيح البخاري والترمذي ومسند أحمد وغيرهم.

يشير إلى كل من ذلك، فصلَّى الله على العالم بالأشياء المخبر بما ظهر هنا وهنالك.

تتمة: قال أبو إسحاق إبراهيم بن محمد التادلي في «**زينة النحر بعلوم البحر**»:

السلك ويُسمَّى طرفرف، من عجائب الدنيا وآياته سبحانه الدّالة على باهر قدرته، وقد صارت به الدنيا اليوم كمدينة واحدة، يأتي الخبر من البلاد البعيدة بنحو شهرين وأكثر في نصف ساعة وأقل، وقد أخبرني رءوف باشا وهو عامل القدس، جاءني لبيتي يسلم عليَّ وقال: إن ابن العربي الحاتمي أشار له، وأنه من أشراط الساعة، ثم جاءه كتاب من اسطنبول فقرأه وقال لي: منذ نصف ساعة كتب هذا الكتاب، وبين القدس واسطنبول نحو شهرين انتهى.

* * *

الحديث الثاني
[حديث تقارب الأسواق]

من مسند الإمام أحمد: أخبرنا الشيخ الإمام والدي أبو المكارم سماعًا عليه، قال: أخبرنا شيخ الشيوخ أبو عبد الله محمد بن أحمد عليش بالقاهرة، عن محمد بن محمد الأمير الصغير المالكي ح، وأنا عاليًا بدرجة البدر عبد الله بن محمد بن صالح الرشيدي بالثغر عن أبيه قالا: أنا أبو عبد الله محمد بن محمد الأمير الكبير، أنا الشهاب أحمد بن عبد الفتاح المجيري، وأحمد بن حسن الخالدي قالا: أنا عبد الله بن سالم البصري عن محمد بن العلاء البابلي، عن علي بن يحيى الزيادي عن الشهاب الرّملي، عن محمد بن عبد الرحمن السخاوي الحافظ، عن محمد بن مقبل الحلبي، أنا الصّلاح بن أبي عمر المقدسي، عن الفخر علي بن البخاري، عن أبي اليمن الكندي، عن أبي بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري، عن الحسن بن علي الجوهري، أنا أبو بكر القطيعي عن عبد الله بن أحمد، ثنا أبي أحمد بن محمد بن حنبل، ثنا عثمان بن عمر، أنا ابن أبي ذئب عن سعيد بن سمعان، عن أبي هريرة أن

رسول الله ﷺ قال:

«لا تقوم الساعة حتى تظهر الفتن، ويكثر الكذب، ويتقارب الأسواق، ويتقارب الزمان، ويكثر الهرج، قيل: وما الهرج؟ قال: القتل[(١)]».

أقول: هذا من جنس ما قبله، فإنّ الأسواق اليوم قد تقاربت قربًا زائدًا، واضمحل البعد اضمحلالاً متكاثرًا، بسبب شيوع سكة الحديد في المشرق وبعض المغرب، وقد أقمت بحُلوان مصر أيامًا، وبينها وبين مصر بسير الجِمال نحو يومين.

فكنت أرى الرجل يبيت في حلوان، فإذا أصبح ذهب إلى سوقه أو دكانه بمصر يبيع ويشتري، ثم يرجع ليلاً، وقد يرجع مرارًا في اليوم الواحد؛ لأن المسافة على سكة الحديد نحو ساعة، فالسّاعة بسكة الحديد كيوم على الدواب، وسفر يوم في سكة الحديد، كسفر جمعة بدونها، وسفر جمعة فيها كسفر شهر بدونها، وهكذا بنحو ما أخبر به الصّادق المصدوق حرفًا حرفًا كما سبق.

***

[بيان مآل الأحوال آخر الزمان]

ومما يندرج في هذا المسلك أيضًا حديث أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا تقوم الساعة حتى يُجعل كتاب الله عارًا، ويكون الإسلام غريبًا، وحتى تبدو الشحناء بين الناس، وحتى يُقبض العلم، ويهرم الزمان، وينقص عمر البشر، وينقص السنون والثمرات، ويُؤتمن التُّهماء، ويُتهم الأمناء، ويُصدق الكذوب، ويُكذب الصَّادق، ويكثر الهرج - وهو القتل-، وحتى تبنى الغُرف فتطاول، وحتى تحزن ذوات الأولاد، وتفرح العواقر، ويظهر البغي والحسد والشُّح، ويهلك الناس، ويكثر الكذب، ويقل الصدق، وحتى تختلف الأمور بين الناس، ويُتبع الهوى، ويُقضى بالظن، ويكثر المطر، ويقل الثمر، ويغيض العلم غيضًا -: أي ينقبض - ويفيض الجهل -: أي يكثر -، ويكون الولد غيظًا: - أي فيه غيظ أبيه وأمه: أي يعمل ما يغيظهما بعقوقه لهما، ولا يكون طوعهما-، والشِّتاء قيضًا-: أي يكون المطر في الصيف فلا ينبت شيئًا - وحتى يُجهر بالفحشاء، وتزوي الأرض زيًّا، وتقوم الخطباء بالكذب، فيجعلون حقي لشرار أمتي، فمن صدقهم بذلك، ورضي به، لم يرح رائحة

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/٥١٩)، ونعيم بن حماد في الفتن (١/٤٨).

الجنة».

أخرجه ابن أبي الدنيا، والطبراني في الكبير، وأبو النصر السجزي في الإبانة، وابن عساكر عن أبي موسى[1].

قال الحافظ الأسيوطي في الجمع: ولا بأس بإسناده، وفي الإشاعة للبرزنجي: إسناده جيد.

[معنى زوي الأرض]

فقف على قوله: «وتزوي الأرض» قال في لسان العرب:

وزويت الشيء جمعته وقبضته.

وفي الحديث: «**إن الله زوى لي الأرض، فأريت مشارقها ومغاربها**[2]».

زويت لي الأرض: جُمعت.

ومنه دعاء الأرض: وازوِ لنا البعيد: أي اجمعه واطوه، وانزوى القوم بعضهم إلى بعضٍ، إذا تدانوا وتضاموا انتهى منه.

ولا شكَّ أنّ هذا ينطبق على ما نشأ عن هذه الأحداث الجديدة، فإنّ البلاد ومن فيها من العباد تدانوا بعضهم مع بعضٍ، وانجلت أمور الكل للبعض، والبعض للكل، وصار أبعد بلدة كأقرب ما يكون للإنسان، حتى أصبحت المسافة بين أمريكا والمغرب لا تتجاوز نصف الشهر أو إلى العشرين يومًا، بعد أن كانت تُقدر بالسنين، فهذا هو التزاوي الذي أشار إليه ﷺ فيما يظهر والله أعلم.

* * *

[بيان فشوّ التجارة وكثرتها]

ومما يدل على ما نحن بصدده أيضًا إخباره ﷺ بكثرة التجارة، وكثرة المال آخر الزمان.

أخرج النسائي عن عمرو بن تغلب قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ من أشراط الساعة أن يفشو المال ويكثر، وتفشو التجارة، ويظهر الجهل، ويبيع الرجل البيع فيقول: حتى أستأمن تاجر بني فلان، ويلتمس في الحي العظيم الكاتب فلا**

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٣٤٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٧٤/٢١)، (١١/٢٢)، وذكره الهيثمي بنحو (٣٢٧/٧)، وعزاه للطبراني، وقال: رجاله ثقات، وفي بعضهم خلاف.

(٢) رواه مسلم (٢٢١٥/٤).

يوجد[١]».

وأخرج الطبراني في الأوسط والحاكم وتعقب عن منتصر بن عمارة بن أبي ذرّ عن جده أبي ذرّ عن النبي ﷺ قال:

«**إذا اقترب الزمان كثر لبس الطيالسة، وكثرت التجارة، وكثر المال، وعظّم رب المال لماله، وكثرت الفاحشة، وكانت إمرة الصِّبيان، وكثر النِّساء، وجار السُّلطان، وطفف في المكيال والميزان، ويربي الرّجل جرو كلب خير له من أن يربي ولدًا، ولا يوقر كبير، ولا يرحم صغير، ويكثر أولاد الزِّنا**[٢]».

قلت: الطيالسة جمع طيلسان بفتح اللام.

قال القرطبي: بُرُود سود، ولحمها وسداها صوف، والفاحشة والفواحش والفحش. قال في النهاية: كل ما يشتد قبحه من الذّنوب والمعاصي، وكثيرًا ما ترد الفاحشة بمعنى الزنا، وكل خصلةٍ قبيحة فهي فاحشة من الأقوال والأفعال انتهى.

وطفف في المكيال قال في الدُّر النثير: طف الصّاع هو ما قرب من ملئه، وقيل: ما علا فوق رأسه.

وأخرج الإمام أحمد، والبزار، والطبراني، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من أشراط الساعة أن يُسلّم الرجل لا يُسلم إلا للمعرفة، وأن تفشو التجارة حتى تُعين المرأة زوجها، وقطع الأرحام، وشهادة الزور، وكتمان شهادة الحق، وأن يجتاز الرجل المسجد لا يصلي فيه**[٣]».

***

[بيان دلالة الأحاديث عن ظهور سكة الحديد]

هذه الأحاديث الثلاثة كسابقها، يدل الجميع على فشوّ التجارة في آخر الزّمان، فيمكن أن يستدل بها أيضًا فيما نحن بصدده، حيث رتب ﷺ فشو التجارة في الحديث الثاني عند الطبراني والحاكم على تقارب أهل الزمان؛ لأن ما يُرى بالمشرق والمغرب الآن من شيوع التجارة، وعظم أمرها، وازدياد شأنها، كله نشأ عن تقارب أهل الشرق والغرب بسكة الحديد؛ لأنها هي التي تنقل السلع في البر،

---

(١) رواه النسائي (٤/٥).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٣/٣٨٦)، والطبراني في الأوسط (٥/١٢٦).

(٣) رواه أحمد (١/٤١٩)، والحاكم في المستدرك (٤/١١٠)، بنحوه.

ووابور النّار ينقلها في البحر، والمخابرة في أثمان السلع اليوم واقعة بواسطة التلغراف والتليفون والوابورات البرية التجارية، بحرية وبرية التي تحمل مكاتب التّجار بعضهم لبعضٍ، فالتبايع اليوم والزيادة في السّلع قد تقع من إقليمٍ إلى إقليمٍ بواسطة ما ذُكر.

وفي بعض فوائد التلغراف قال بعض التونسيين:

وقربة الإبلاغ عند تخابر ... به عمَّ بالنفع كل مكان
فيه الإدارة والتجارة ترتقي ... في كل وقتٍ بين أهل الشّأن
وبه الفوائد قد غدت منشورة ... وتجددت بتجدد الأزمان

وإلى الله عاقبة الأمور.

***

[فوائد سفن البحر]

تتمة: فهذه الأحاديث من معنى قوله سبحانه وتعالى ذاكرًا فوائد سفن البحر، وأنها تسير كسير السحاب المسخر، وما نتج عنها من المواصلات وانتفاع أهل العالم بذلك:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤].

صدَّر سبحانه هذا القول بتوحيد الربوبية، وأردف ذلك بمنِّه بإمكان بعضه ببعضٍ بسير السّفن بالقوانين الحرية لرقي التجارة بتبادل المنافع بين الأمم، فيأكل الغربي ما نبت في الشرق، ويأكل الشرقي ما نبت في الغرب.

وقال تعالى أيضًا:

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا * وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٤: ١٨].

الحديث الثالث

[حديث ترك القلاص]

وجدته في صحيح مسلم ومسند الإمام أحمد:

أخبرنا الإمام العظيم شيخنا الوالد، قال: أخبرنا به شيخ الشيوخ إبراهيم بن علي السّقا الأزهري بمصر عن محمد بن محمود الجزائري الإسكندري (ح).

وأخبرنا أعلى بدرجة الشهاب أحمد بن الطالب بن محمد بن محمد بن أحمد المري بفاس سماعًا عن مصطفى بن عبد الرحمن الجزائري كلاهما عن أبي الحسن علي بن الأمين الجزائري، أنا أبو الحسن علي بن العربي السّقاط المغربي عن محمد بن عبد الباقي الزرقاني، عن محمد ابن العلاء البابلي، عن سالم بن محمد بقراءته على نجم الدين محمد بن أحمد الغيطي عن شيخ الإسلام زكريا، أنا أبو النعيم رضوان بن محمد العقبي عن الشرف أبي الطاهر بن الكويك، عن أبي الفرج عبد الرحمن بن عبد الحميد المقدسي، عن أبي العباس أحمد بن عبد الدائم النابلسي، أنا محمد بن صدقة الحراني عن فقيه الحرم محمد بن الفضل الفراوي، أنا الحسين بن عبد الغفار الفارسي، أنا أبو أحمد الجلودي، أنا إبراهيم بن سفيان، أنا مسلم بن الحجاج القشيري، حدَّثنا قتيبة بن سعيد، حدَّثنا ليث عن سعيد بن أبي سعيد عن عطاء بن ميناء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«لينزلنَّ ابن مريم حكمًا عدلاً، فليكسرنّ الصليب، وليقتلنَّ الخنزير، وليضعنَّ الجزية، وليتركنَّ القِلاَص، فلا يسعى عليها، ولتذهبنَّ الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحدٌ[1]».

وفي مسند الإمام أحمد: حدَّثنا حجاج ثنا ليث ثنا سعيد قال: وحدَّثنا هاشم، حدَّثنا ليث، حدَّثني سعيد بن أبي سعيد عن عطاء بن ميناء مولى بن أبي ذباب عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لينزلنَّ ابن مريم حكمًا وعدلاً، فيكسر الصليب، وليقتل الخنزير، وليضعن الجزية، وليتركن القلاص، فلا يسعى عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحدٌ[2]».

---

(١) رواه مسلم (١/١٣٦).

(٢) رواه أحمد (٢/٤٩٣).

قلت: القلاص جمع القلوص وهي الناقة الشابة، وقيل: لا تزال قلوصًا حتى تصير بازلاً، وتُجمع على قلاص وقلص أيضًا قاله ابن الأثير.

وزاد الأسيوطي: من جموعه: قلائص.

قال الإمام النووي: القلاص بكسر القاف جمع قلوص وبفتحها وهي من الإبل، كالفتاة من النساء، والحدث من الرِّجال، ومعناه أن يزهد فيها، ولا يرغب في اقتنائها؛ لكونها أشرف الإبل التي هي أنفس الأموال عند العرب، وهو شبيه بمعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير:٤].

ومعنى لا يسعى عليها: أي يتساهل أهلها فيها ولا يعتنون بها، هذا هو الظاهر.

وقال القاضي عياض وصاحب المطالع رحمهما الله: معنى لا يسعى عليها: أي لا يتطلب زكاتها؛ إذ لا يوجد من يقبلها، وهذا تأويلٌ باطلٌ من وجوهٍ كثيرةٍ تُفهم من هذا الحديث وغيره، بل الصواب ما قدمناه، والله أعلم انتهى منه.

ونقله مقتصرًا عليه مع تلخيصه أبو عبد الله السنوسي في مكمل الإكمال، والشيخ محمد طاهر الفتني في مجمع بحار الأنوار وغيرهما.

ونقل علي بن سلطان في شرح مشكاة المصابيح عن الطِّيبي ما نصَّه:

ويجوز أن يكون ذلك كناية عن ترك التجارب والضرب في الأرض لطلب المال، وتحصيل ما يحتاج إليه لاستغنائهم انتهى.

***

[ترك وقلة تجارة الإبل]

وقوله: عن ترك التجارات: أي على الجِمال، وهذا أمرٌ مشاهدٌ بالأبصار، مدركٌ بعين الاعتبار، فإن سكة الحديد حيثما وُجدت أُهملت الجِمَال.

واشتغل الناس بالسكة: أي حتى عن ركوب الخيل والبغال.

وترك الناس التجارة عليها، والبيع وحمل السِّلع، وضرب الأرض لطلب المال بكل صقع، وقد تمالأ العرب بالحجاز على السّعي في إهمال السكة، بل بالتعرض لها لما رأوا أنّ فيها إهمال الجمال، وفي ذلك ضياع تجارتهم وربحهم، فردتهم قوة الدولة العثمانية عما يريدون.

وسلك الوابور في تلك السُّبل والوهاد وأهله عنهم معرضون فقد تركت الآن، أو كادت القلوص بالحجاز بعد وصول السكة إلى المدينة.

فإذا عمَّت السكة كل جزيرة العرب استغنى الناس عن الجِمال بالكلية.

فالحمد لله على هذه المعجزات الظاهرة، والأخبار بالمغيبات الفاخرة، صدق الله ورسوله.

الحديث الرابع

[ترك الفرس آخر الزمان]

من سنن ابن ماجه:

أخبرنا الأستاذ الوالد بركة العصر، نور الوقت أبو المكارم الكتاني الإدريسي عن محدث دار الهجرة عبد الغني بن أبي سعيد النقشبندي عن محدث الحجاز محمد عابد الأنصاري السندي (ح).

وأخبرنا عاليًا بدرجة الفقيه المعمر أبو محمد عبد الله بن درويش الركابي وغيره شفاهًا بدمشق عن محدّث الشّام الوجيه عبد الرحمن بن محمد الكزبري الدمشقي، كلاهما من محدّث المالكية صالح بن محمد الفلاني المدني عن شيخه محمد سعيد سفر، عن تاج الدّين محمد القلعي المالكي، عن محمد بن أبي الخير المرحومي الشافعي، أنا أبو النجا سالم بن محمد السنهوري، أنا النجم محمد بن أحمد الغيطي، عن شيخ الإسلام زكريا الأنصاري، أنا الحافظ أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني، أنا أبو العباس أحمد بن عمر بن علي البغدادي اللؤلؤي، عن الحافظ أبي الحجّاج يوسف بن عبد الرحمن المزي عن شيخ الإسلام عبد الرحمن بن أبي عمر بن قدامة المقدسي، أنا موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة عن أبي زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسي، عن أبي منصور محمد بن الحسين القزويني، عن أبي طلحة القاسم ابن أبي المنذر، أنا علي بن إبراهيم بن سلمة القطان، أنا الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، قال في باب: فتنة الدّجال من سننه: حدَّثنا علي بن محمد – قلت: يعني الطنافسي- أبو الحسن الحافظ الكوفي، وثقه أبو حاتم وقال: هو أحبّ إلَيَّ من ابن أبي شيبة في الخير والصلاح ثنا عبد الرحمن المحاربي – قلت: يعني ابن محمد بن زياد أبو محمد الكوفي -، وثقه ابن معين والنسائي.

وقال غيره: إذا حدَّث عن الثقات، وهو عن إسماعيل بن رافع أبي رافع- قلت: يعني القاص البصري – قال النسائي: متروك، وخرَّج له البخاري في الأدب المفرد،

وبعض رجال الستة، وهو عن أبي زرعة السيباني - قلت: بفتح المهملة، يحيى بن أبي عمر يعني الحمصي - وثَّقه أحمد، ودحيم، والعجلي، وهو عن أبي أمامة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فكان أكثر خطبته حديثًا، حدَّثناه عن الدجال وحذرناه.

فذكر حديثًا طويلاً في نحو ورقتين، وفيه من أشراط الساعة:

«**ويكون الثور بكذا من المال، وتكون الفرس بالدريهمات، قالوا: يا رسول الله، وما يرخص الفرس؟ قال: لا تُركب لحرب أبدًا، قيل له: فما يغلي الثور؟ قال: تحرث الأرض كلها**[1]» الحديث. وقد أخرجه أيضًا ابن خزيمة في صحيحه.

وخرَّج ابن ماجه أيضًا قبل الحديث المذكور من حديثٍ طويلٍ أيضًا لسيدنا النّواس بن سمعان الكلابي وفيه: «**يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار لأحدكم اليوم**[2]»

هذا الحديث المذكور يؤخذ منه التبشير بسكة الحديد بطريق اللّزوم من حيثيتين:

الأولى: ما فيه من رخص الخيل آخر الزمان، وعدم مبالاة الناس بها، إنما وقع الآن في البلاد التي ظهرت فيها سكة الحديد، فإن الخيل يترك ركوبها والسفر عليها إلا لزينةٍ أو لركوب رؤساء الحروب في وقت الحرب إن كان، أو حالة تدريب الجيش البري له.

* * *

[بيان اتحاد الروم ضد المسلمين]

وقد ظهرت الآن مخايل ترك الحرب في عموم العالم بما أكثرته دول الرُّوم من المحالفات بعضها مع بعضٍ، والائتلافات الناتجة أيضًا عن ترقِّي الكل العظيم، وعموم الاستعداد للكل، وعدم وقوع الحيف في الأمور الهامة، واتباعهم لقوانين يسير عليها جميعهم استوجب ذلك أيضًا سرعة الوصول من هذه الأمة للأخرى، وشدة الامتزاج.

وعلم الكل منهم بمجريات أحوال البعض، وعلم البعض كذلك بأحوال الكل

---

(١) رواه ابن ماجه (١٣٦٢/٢).

(٢) رواه مسلم (٢٢٥٤/٤)، والترمذي (٥١٠/٤)، وابن ماجه (١٣٥٨/٢).

بسبب هذه الاختراعات، ولما ذكرناه من الاهتمام بترك الحرب كليًا في العالم من فئاتٍ من السياسيين يسعون فيه بأقلامهم وألسنتهم.

هذا إذا كان قوله ﷺ ترك الحرب في عموم الأرض، أما إذا كان عني ترك محاربة الإسلام للناصري، فهو أمر ترك اليوم وقبله بأزمان.

وصار الناس يبحثون عن أسباب الحرث، والاستكثار في الدنيا لا غير؛ لما عاق الإسلام وأهله من الضعف والوهن وانعدام القوة المماثلة.

ويؤيد هذا الاحتمال أن البرزنجي ذكر هذا الحديث بلفظ: «**وما يرخص الخيل؟ قال: عدم الجهاد**[1]».

وعلى كل حال فلو فرضنا وجود ركوب الخيل الآن في حربٍ إن كانت فهي نادرة ليس الاتكال عليها، بل على المدافع البرِّية والبحرية التي قد يحملها إلى محل الحرب وابور البر أو البحر حسبما يعلم هذا العلماء بالحروب وقواعدها وقراء الصحف السيارة.

* * *

[بيان إخباره ﷺ بحرث الأرض]

وأما الوجه الثاني وهو ظاهرٌ:

فإخباره ﷺ بحرث الأرض كلها يتضمن الإخبار بالسكة الحديدية أيضًا؛ إذ كل ما حرث من الأرض لو اتسع منها الطول والعرض فهو بموجب تعميم السكة في أرجاء العالم، ومرورها في مرجان الدنيا وخلجانها؛ إذ لا يخفى أنه لا يتوصل إلى الأرض البعيدة التي لم تكن تُسكن، أو يمر عليها بانعدام الماء منها أو غير ذلك إلا بالسكة، فيحملها الوابور، وينقل لها مستعدات الحضر وما يسهل به الذهاب والإياب، وكل طريقٍ استعملت فيها السكة بين بلدةٍ وبلدةٍ فلا بدَّ أن تسكن وتُعمَّر، ولا بدَّ أن تحرث حتى يجد الركاب في كل طريقٍ مروا عليها ما يرومون، وبهذا صارت الأرض كلها محروثة؛ لأن السكة الآن عمَّت جلَّ المعمور من الأرض، بل غالب البلاد اليوم يحيط بها مدة اليوم أو أكثر من كل جهاتها، والأزهار والبساتين تعلوا على الجبال والوهاد والمروج والغياض والأدواح التي يلعب النسيم بأفنانها

---

(١) ذكره البرزنجي في الإشاعة (ص٧٦).

على الجداول التي يغني ماؤها في تصببه كأنها القيان تعزف بألحانها، مما يتصوره ساكن قطر كله سهول مبسوطة على وتيرةٍ واحدةٍ، ولو أنبتت العسجد، وتسربلت بالزبرجد، فضلاً عن مثلنا ممن أضناهم الفقر، وعلاهم التعس والبأس، وناهيك بقومٍ عجلت طيباتهم في الحياة الدنيا، وجنتهم الدنيا، بل توصلوا إلى رفع الماء على وجه الأرض في أي محلٍّ جلسوا أو خيَّموا بالآلات الحديدية، فيتصاعد إليهم الماء ولو بَعُد منه المأوى، أو صعب إليه الوصول من غير كبير معاناة ولا كثير مشقة، ثم اتخذوا للحرث آلات حديدية، وكذا للحصاد والدراس والتصفية والطحن، يستغنون بها عن الجهد الجهيد الذي نستعمله الآن في المغرب.

وغير ما ذُكر مما لا يصدق به الوجدان من قوم الدنيا سجنهم، مع أن النظر إليه والبحث عنه، يشرح للقارئ معنى قوله سبحانه في حقهم:

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم:٧].

وما قاله سبحانه: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ﴾ [آل عمران:١٩٦]، وقوله جلَّ ذكره: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [طه:١٣١]، إلى غير ذلك مما عظمت به ثروة الشرقيين، وناهزوا به فراعنة مصر السابقين.

ولا شكَّ أن بهذا التقرير صار هذا الحديث من معنى الأحاديث السابقة واللاحقة، المنبأة بالاستغناء عن الجمال وبفيض المال، وتواصل الأطباق – وهم الأجانب والبعداء– وتقارب الأسواق والبلدان، وكثرة التجارة وغير ذلك.

فهذه الأحاديث من معنًى واحدٍ، يؤخذ من مجموعها أعظم شاهد، ولست أتكل في إقرار هذا أو إدراكه على من لم يرَ من البلاد دون مدينة فاس والمدينة البيضاء المعروفة اليوم بفاس الجديد، فإن عظم منه الترحال سافر إلى زرهون، بل اتكل في تصوير ما ذكرته، وتشخيص ما أذكره، وأشرح به هذه الأحاديث على من جال في البلاد، وذاكر من فيها من العباد شرقًا وغربًا، برًّا وبحرًا، ورأى من وصل إليه التمدن العصري والحضارة الشرقية، كما لا يقع مني التفاوت لإنكار من لم يرَ من المشرق إلا جدة أو الينبوع؛ لأنه يقيس ما لم يرَ على ما رأى، وشأن العقلاء بخلاف ذلك.

***

[من كلام العلامة ابن خلدون الأندلسي]

وللسان العلم، وباقعة المغرب، ولي الدِّين بن خلدون كلام لا بدَّ من تطريز هذه الرسالة بدرره، وإتحاف قرائها بجواهر كلمه، قال في فصل إن آثار الدول كلها عن نسبة قوتها في أصلها ما نصُّه:

ورد لعهد السلطان أبي عنان – من ملوك بني مرين – رجل من مشيخة طنجة يُعرف بابن بطوطة، كان رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق، وتقلّب في بلاد العراق واليمن والهند، ودخل مدينة دهلي حاضرة ملوك الهند، واتصل بملك ذلك العهد، وكان له عنده مكان، ثم انقلب للمغرب، واتصل بالسلطان أبي عنان، وكان يحدّث عن شأن رحلته، وما رأى من الغرائب بتلك الأرض، ويأتي بما يستغربه السامعون، فتناجى الناس بكذبه، ولقيت يومًا وزير السلطان فارس بن ودرار البعيد الصِّيت، ففاوضته في هذا الشأن، وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض من تكذيبه.

فقال لي الوزير فارس: إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره، فتكون كابن الوزير الناشئ في السجن، وذلك أن وزيرًا اعتقله سلطانه، ومكث في السجن سنين، ربّى فيها ابنه في ذلك المحبس، فلما أدرك وعقل سأل عن اللحمان التي كان يتغذّى بها، فقال له أبوه: هذا لحم الغنم. فقال: وما الغنم؟ فيصفها له بشياتها ونعوتها. فيقول: يا أبتِ تراها مثل الفأر؟ فينكر عليه ويقول: أين الغنم من الفأر، وكذا في لحم الإبل والبقر، لم يعاين في محبسه من الحيوانات إلا الفأر، فيحسبها كلها أبناء جنس الفأر، وهكذا كثيرًا ما يعتري الناس في الأخبار كما يعتريهم الوسواس في الزيادة عند قصد الإغراب، فيرجع الإنسان إلى أصوله، وليكن مهيمنًا على نفسه، ومميزًا بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته انتهى. وراجع بقيته.

تتمة: ابن بطوطة هذا هو محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة، قال في تاج العروس: كسفودة، صاحب الرحلة المشهورة التي دار فيها ما بين المشرق والمغرب، كتبها عن إملائه ابن جُزيّ بأمر أبي عنان المريني.

وكان ابتداء رحلته سنة ٧٢٥ هـ وانتهاؤها سنة ٧٥٤ هـ وهي في مجلد.

وقد طُبعت مرارًا[1]، كاختصارها، ولعله لمحمد بن فتح الله البيلوني الحلبي.

ولم يذكر أصحاب الطبع مؤلفه، وهو في نحو (٧) كراريس، وقبر ابن بطوطة بطنجة وقفت عليه بها.

***

الحديث الخامس
[حديث تواصل الأطباق]

وجدته في كتب الحافظ الأسيوطي كالجمع والخصائص الكبرى معزوًا للطبراني عن ابن مسعود.

ولفظه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ومن أعلام الساعة أن يكون الولد غيظًا، وأن تفيض الأشرار فيضًا، ومن أعلام الساعة أن تواصل الأطباق، وأن تقطع الأرحام، وأن يسود كل قبيلةٍ منافقوها، ومن أعلام الساعة أن تزخرف المحاريب، وأن تخرب القلوب، وأن يكون المؤمن في القبيلة أذل من العبد، وأن يكتفي الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، ومن أعلام الساعة ملك الصبيان، ومؤامرة النساء، وأن يعمر خراب الدنيا، ويخرب عمرانها، وأن تظهر المعازف والكبر وشرب الخمور، وأن يكثر أولاد الزِّنا، قيل لابن مسعود: وهم مسلمون؟ قال: نعم، يأتي على الناس زمانٌ يطلق الرجل المرأة طلاقها فيقيم على فراشها فهما زانيان ما أقاما[2]».

قوله ﷺ: «**ومن أعلام الساعة أن تواصل الأطباق**[3]».

قال في النهاية: يعني بالأطباق البعداء والأجانب؛ لأن طبقات الناس أصناف مختلفة، وعبارة غير ابن الأثير ما نصَّه:

أي يحسن السلوك إلى الأجانب، والأطباق: القبائل المختلفة.

والكَبَر: طبل ذو رأسين، وقيل: هو طبل ذو وجهٍ.

قلت: وهذا الحديث مما ينبغي أن يستدل به في هذا الباب كما لا يخفى على أولي الألباب؛ لأنه ما أمكن تواصل الأمم المختلفة والأجناس المتفرقة، والشعوب المتباعدة ذات الألسن المتباينة، والطباع المتعاكسة إلا بواسطة سكة الحديد التي

---

(١) من أحدث الطبعات، طبعة دار الكتب العلمية.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٠/٢٢٩)، وفي الأوسط (٥/١٢٧).

(٣) رواه الطبراني في الكبير (١٠/٢٢٩).

تقارب بها أهل الزمان، وأمكن وصول الأخبار بين الناس بسرعة ولو تباعدت البلدان، أو نأت الأقطار ومن فيها من السكان، ولو رأى الإنسان مصر الآن ومن يرد عليها من الأمم من كل إقليم المختلفي الصور، والعقول، والأشكال، والملابس، والألسنة، والعلوم، والفهوم، والأديان، لقضى بالعجب العجاب، وانقضى عليه الدهر في الاستغراب، كل ذلك نشأ واستوجبه سكة الحديد التي قرَّبت المسافات، وسهَّلت السبل والمسالك.

وما من مرسى من مراسي الشرق إلا فيها المئون من الوابورات البحرية، وكل ما ينزل من أشخاصٍ وسلعٍ، وغير ذلك من هذه المراكب الكبيرة، يجد ما يحمله في البر من المراكب الحديدية البرية.

إن هذا الإخبار لمن أعظم المعجزات، ولمن أصدق الذكر والآيات، فتبارك الله أحسن الخالقين، وسبحان ربنا إله المرزوقين والناطقين.

فائدة جليلة:

كان ابتداء إنشاء طريق الحديد من مصر إلى الإسكندرية وتمامها بينهما في عهد محمد سعيد باشا سنة ١٢٦٩هـ .

وأما تفرعها بجهات القطر المصري عمومًا فبعناية إسماعيل باشا خديوي مصر، وتاريخها للشيخ مصطفى سلامة من قصيدة:

في برِّ مصر أنشأ الوابور

***

الحديث السادس

[حديث عمران الخراب]

وجدته في جمع الجوامع أيضًا معزوًا لعبد الرزاق والطبراني عن عبد الله بن زبيب الجندي قال: قال رسول الله:

«يا أبا الوليد، يا عبادة بن الصامت، إذا رأيت الصدقة كُتمت وغُلّت، واستؤجر على الغزو، وأُخرب العامر، وعُمِّر الخراب، وصار الرجل يتمرَّس بأمانته كما يتمرَّس البعير بالشجرة، فإنك والساعة كهاتين[1]».

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف (٥/٢٣١)، وذكره ابن حجر في الإصابة (٥/١٨٨).

وتقدم حديث ابن مسعود عند الطبراني أيضًا.

قلت: كل رجلٍ رأى الشرق، وكل بلدٍ دخلتها حضارة العصر يجد أن بواسطة السكة الحديدية والتلغراف، وغير ذلك من الأحداث العجيبة عمرت بلاد كانت خرابًا لا يؤبه بها، ومأوى للطيور لا ينتبه لموقعها، وصارت الآن من البلاد المقصودة، والمستعمرات الموجودة المشهودة، وكم من محالٍّ كانت عامرة، وبسكانها آهلة، خُربت بانتقال العمارة والتجارة منها إلى غيرها من البلاد التي يناسب موقعها أن تكون كذلك من نحو مجاورة بحر أو بر مرور سكة وغير ذلك، والله أعلم.

وانظر إلى المسافة التي بين الشام والحجاز كيف كان انتهى إليها الخراب، لا تعمرها إلا الطيور أو الحشرات.

وكيف صارت الآن بعد وصول الوابور إليها عامرة بالمحطات المتوالية بكل معنى العمارة، فيجد الإنسان فيها كل ما يشتهيه ويريده من أكلٍ وثمارٍ، وجميع ما تشتهيه الأنفس، وتستلذه الأعين.

وبعكس من ذلك الأماكن التي كانت مسلوكة قبل إيجاد سكة الحديد، فإن عمارتها انقلبت خرابًا، وثمارها صارت ترابًا، ولله في خلقه عجب بل ليس هناك شيء بالنسبة إلى قدرة الربوبية بمستغرب، جلّ أمر الله وتعاظم سبحانه.

* * *

الحديث السابع
[زوال الجبال]

وجدته في جمع الجوامع أيضًا معزوًا للطبراني في الكبير عن سيدنا سمرة قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تزول الجبال عن أماكنها، وترون الأمور العظام التي لم تكونوا ترونها**[1]».

قلت: أيضًا هذا محمولٌ على التبشير بسكة الحديد وغيرها من غرائب هذا العصر، وعجائب هذا الوقت الظاهرة في كل مصر، فكل جبل أعرضته سكة الحديد في طريق سلوكه أين استعملت في الغرب أو الشرق أزيل ذلك الجبل، إن كان

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢٠٧/٧)، والديلمي في الفردوس (٨٣/٥) بنحوه.

صغيرًا بالديناميت، أو خرق إن كان كبيرًا، فيسير الوابور في وسطه، وكم خرق الوابور لما ركبنا من بيروت إلى دمشق الشام سنة ١٣٢٤ هـ من جبالٍ وأوعارٍ، بحيث كنت لا أبصر ضوءًا مرارًا في الوابور بسبب دخوله في الجبال، فينحجب الضوء عن العيون بالكلية، ولا ينافي هذا كون الجبال زالت عن مواضعها بالفعل فيما قبل، لأنا نقول: أشار إليهما ﷺ معًا، وعلى فرض أن الجبال لا تزول كلها فبعضها.

وانظر كيف عقب الصادق المصدوق خبر زوال الجبال بحدوث الأمور العظام التي لم نكن نراها، فهذا أعظم تصريح لا تراه من باب التلويح، فكل ما ظهر أو يظهر داخلٌ في هذا الحديث دخولاً أوليًا جليًا بكل برهانٍ مما يركب الناس عليه الآن في الهواء، أو تحت الماء، أو فوقه، أو فوق التراب، فأي أمر أعظم من استخدام هذه العناصر الأربعة وغيرها التي هي الهواء والماء والنار والتراب، فالتراب قهر بخرقه لو تعاظمت منه الجبال، ويسير عليه كيف يشاء الراكب شمالاً أو جنوبًا، أمامًا أو خلفًا، وقد كان هذا من المحالات العادية، حتى كانت رابعة البصرية من عبَّاد السلف تنشد:

ترجو النَّجاة ولم تسلك مسالكها إنّ السَّفينة لا تجري على اليَبَسِ

ووقع في شرح الشبرخيتي على الأربعين النووية نسبة هذا البيت لعبد الله بن المبارك انتهى.

***

[حدوث الغوَّاصات المائية واستكشاف السفن النارية]

فأصبحت اليوم تجري السفن على اليبس والماء بالركوب فوقه تارة، وتحته أخرى، كما في المراكب البحرية الصغيرة الحادثة الظهور التي تغطس في البحر لقلب المراكب في الحروب، وتسافر في جوفه لا يظهر منها شيءٌ، يغلق على ما في جوفها من الآدمي والأمتعة، وتُوقد السُّرج ليلاً ونهارًا، حتى إذا وصل لموضع مطلوبه، تصير طافية فوق الماء على عادة السُّفن بالآلات والنار، باستعمالها واستخدامها في كل ما أراده الإنسان، خصوصًا في السُّفن التي عطّلت الآن سفن الرِّيح.

وقد كان أول مستنبط لسفن النار كما أشار إليه صاحب أقوم المسالك، اليونان،

قبل الهجرة بيسير، لكن إنما وجد في كتبهم الإشارة لبعض تراكيبها، ثم أول ما ظهر تركيبها وخروجها من القوة إلى الفعل بإشبيلية من جزيرة الأندلس، فحدثت أولاً صغيرة، ثم رآها المهندسون من الأمم، فتسارعوا إلى التفنن والتفوق فيها، ووصلت إلى ما وصلت إليه الآن من الاتساع والضخامة وأسباب الراحة، حتى كأنها قصرٌ مشيَّدٌ، والهواء يسير ضد المراكب البحرية بعد أن كانت تمشي بموافقته، إن أقبل أقبلت، وإن أدبر أدبرت، صارت تمشي كيف شاء ركابها شرق الريح أو جوف، فهي تذهب أين تقصد، وقد زيد الهواء ضغطًا الآن بعلو هذه المراكب الجوية فيه لتصل إلى الأماكن التي لم تصل إليها الأرجل والأيدي، تُستخدم في الحروب وغيرها.

[الإخبار عن الطائرات الجوية]

وقد وجدت حديثًا يحتمل أن يكون النبي ﷺ أشار إلى هذه المراكب الهوائية الجوية فيه، وهو ما أخرج الطبراني في معجمه الكبير عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال مولانا رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى لا تنطح ذات قرن جماء، وحتى يبعث الغلام الشيخ بريدًا بين الأفقين، وحتى يبلغ التاجر بين الأفقين فلا يجد ربحًا**[1]».

أورده الحافظ الأسيوطي في جمع الجوامع وهو في ترتيب ابن الهندي له في صحيفة ١٧ من الجزء السادس من هامش مسند الإمام أحمد.

والمؤمل أن هذه المراكب الجوية تُستعمل عما قريب، وتُستخدم كاستخدام البرية والبحرية، وآخر ما جاء عن الطيران بها في هذا الشهر، أن جمعية عينت منذ أربع سنوات جائزة قدرها عشرة آلاف ليرة لمن يطير من لندن إلى منشستر بطيارة تكون أثقل من الهواء، بشرط ألا ينزل إلى الأرض أثناء طيرانه سوى مرتين لأخذ بعض اللوازم لذلك، والمسافة بين المدينتين خط سكة الحديد (١٨٧) ميلاً، فجاء رجلٌ بطيارته في هذا الشهر وقطع كل هذه المسافة الطويلة بالطيران من لندن إلى منشستر، فأحرز الجائزة المعينة.

وإن الله ليؤيد هذا الدِّين بالرَّجل الفاجر، فهم يجتهدون ويدفعون الأموال لأغراضهم، ولله في ضمن ما أعطاهم من القدرة على ذلك وأشباهه ظهور مصداق

---

(١) رواه أحمد (٤٤٢/٢)، والبخاري في التاريخ الكبير (٣٠٠/٤)، والطبراني في الكبير (٢٩٧/٩)، وعبد الرزاق في المصنف (١٥٦/٣)، بنحوه مختصرًا.

ما أخبر به رسول الله ﷺ، فالحمد لله في الآخرة والأولى.

وما كل هذا عندي إلا داخلٌ دخولاً أوليًا في قوله تعالى لما امتن على عباده بما يركبونه في قوله جلَّ أمره: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ﴾ -: أي مما يركب، وقد يفوق ويفوق ما ذكر- ﴿مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨]، كل هذا مما ذكرنا مما لم يكن يعلمه الأوائل، ولا يتشخصونه ولو في الأحلام، ونحن كذلك في عصر الغرائب والعجائب هذا مخاطبون أيضًا بعد كل ما ذُكر بقوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾، ففي ما سيخلق سبحانه قريبًا ما هو من هذا أعجب.

وفي الكون أغرب، إن الله على كل شيءٍ قدير.

تتمة: من معنى ما ذُكر من زوال الجبال ما قاله الشيخ عبد الرحمن الراشدي المجاجي في شرحه على مختصر ابن أبي جمرة على حديث أبي هريرة السابق: «**لا تقوم الساعة حتى يُقبض العلم، ويكثر الزلازل**» ما نصّه:

وانظر هل يدخل في هذا المعنى كثرة تشققها وتبدل سهلها وعرًا، ووطائها جبلاً، إلى غير هذا مما شُوهد في الوقت، والظاهر أن هذا المذكور من ذلك القبيل؛ لأن التفتق وما معه لا يكون إلا بعد حركة.

ويشهد لهذا المعنى ما ذكره بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة:١]، أن ذلك في الدُّنيا، وأنّ المراد بأثقالها التي تخرج من الأرض وهي الكنوز، وأن المراد فتحدث الأخبار ما يقتضيه لسان حالها من تفتيت أجزائها وتغير أحوالها، والله أعلم انتهى.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات:١٨٠، ١٨١، ١٨٢].

الباب الثاني

في الأحاديث الدالة على وصول سكة الحديد إلى المدينة ذات المزايا الثمينة

الحديث الأول

[أرض العرب تعود مروجًا]

وقفت على حديثٍ صريحٍ فيما لزم عن وصول السكة إلى الحجاز.

وهو في صحيح مسلم، ومسند أحمد رضي الله عنهما.

وبسندنا السابق إلى مسلم قال: حدَّثنا قتيبة بن سعيد نا يعقوب، وهو ابن عبد الرحمن القارئ، عن سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«**لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض، حتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحدًا يقبلها منه، وحتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا**[1]».

وبهذا السند أيضًا أخرجه الإمام أحمد في مسنده من قتيبة باللفظ المذكور.

وزاد عقب قوله: «**وأنهارًا**» «**وحتى يكثر الهرج**، قالوا: وما الهرج يا رسول الله؟ قال: **القتل القتل**[2]».

وعزاه الأسيوطي في الخصائص الكبرى لأحمد مقتصرًا عليه، فكأنه لم يستحضر ساعة كتبه أنه في مسلم، وقد عزاه إليه الصغاني في مشارق الأنوار، والتبريزي في مشكاة المصابيح وغيرهما.

ثم وجدت الأسيوطي نفسه عزاه إلى مسلم في جمع الجوامع.

وهو هذا اللفظ الذي نسبه الأسيوطي لأحمد أيضًا:

«**لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا، وحتى يسير الراكب بين العراق ومكة لا يخاف إلا ضلال الطريق**[3]».

ثم عزاه للحاكم أيضًا من حديث أبي هريرة بلفظ: «**لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا**[4]».

قال في النهاية: الأرض الواسعة ذات نباتٍ كثيرٍ، تمرج فيه الدَّواب: أي تخلَّى

---

(١) رواه مسلم (٢/٧٠١)،

(٢) رواه أحمد (٢/٤١٧).

(٣) رواه أحمد (٢/٣٧٠).

(٤) رواه الحاكم في المستدرك (٤/٥٢٤).

تسرح مختلطة كيف شاءت انتهى.

وفي شرح مشكاة المصابيح للقاري:

(مروج) بالضم: أي رياض كما كانت بنباتها وأشجارها وأثمارها وأنهارها: أي مياهها كثيرة جارية في أنهارها، وفيه إشارةٌ إلى ما قيل من أن الدنيا جنة الحمقى في أنهم يأكلون كما تأكل الأنعام غافلين عن العقبى انتهى.

وفي شرح المشارق لعبد اللطيف بن عبد العزيز المعروف بابن مالك:

مروجًا: أي رياضًا ومزارع، قيل: كان أكثر أراضيهم أولاً مروجًا وصحاري ذات مياه وأشجار، فخربت، ثم تكون معمورة باشتغال الناس في آخر الزمان بالعمارة، يدل عليه قوله: «**حتى تعود**».

وقال البعض: المرج هو الموضع الذي يُرعى فيه الدواب، فمعنى الحديث:

إن أراضي العرب تبقى معطلة في آخر الزمان، لا تُزرع ولا تُنفع بها؛ لقلة الرِّجال وتراكم الفتن، لكن هذا المعنى لا يناسبه قوله: «**وأنهارًا**»؛ لأن الأنهار في الأراضي التي لا نهر فيها لا تكون إلا بالكراء والعمارة، قيل: المراد بأرض العرب هي المدينة كذا في التحفة انتهى من المشارق.

الحديث الثاني

[بلوغ مساكن المدينة]

وجدته في كتاب الفتن من صحيح مسلم قال: باب سكني المدينة وعمارتها آخر الزمان: حدَّثنا عمرو النَّاقد ثنا الأسود بن عامر، نا زهير عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ستبلغ المساكن بإهابٍ أو يهاب**[1]».

قال زهير: قلت لسهيل: وكم ذلك من المدينة؟

قال: كذا وكذا.

قال النووي: وهو على أميال من المدينة.

قال الأبي: وبلوغ المساكن إليها معجزة وقعت.

قلت: وهذا الحديث أورده الخطيب التبريزي عقب حديث المروج والأنهار

---

(١) رواه مسلم (٤/٢٢٢٨) بنحوه.

السابق في كتابه مشكاة المصابيح ونصّه:

وفي رواية له: أي لمسلم قال: «**تبلغ المساكن إهاب أو يهاب**[١]»، فكأنه أورده شارحًا به الحديث الذي قبله.

قال القاري: أي اتصل نهاية مساكن المدينة إهاب بكسر الهمزة، وفتح الموحدة، أو يهاب بفتح الياء التحتية، وهو الأنسب للازدواج، وهما موضعان قرب المدينة، والمراد كثرة عمارة المدينة وما حولها.

وقال التوربشتي: يريد أن المدينة يكثر سوادها حتى يتصل مساكن أهلها بإهاب أو يهاب، شكَّ الراوي في اسم الموضع، أو كان يدعى بكلا الاسمين.

وفي القاموس: (الإهاب) كسحاب، موضع قرب المدينة.

قال في تاج العروس: أوهَم المصنف الفتح، وقد قلَّد فيه الصغاني، وضبطه ابن الأثير وعياض وصاحب المراصد بكسر الهمزة انتهى.

ومعنى هذا الحديث ما عند أحمد برجال ثقات: «**يوشك أن يرجع الناس إلى المدينة حتى تصير مسالحهم بسلاح**[٢]».

وخرَّج ابن زبالة: «**كيف بك يا عائشة إذا رجع الناس للمدينة وكانت كالرمانة المحشوة، قالت: من أين يأكلون يا نبي الله؟ قال: يطعمهم الله من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، ومن جنات عدن**[٣]».

وفي رواية: «**وليوشكن أن يبلغن بنيانهم هَيْف**[٤]»، وله عقب ذكر شجرة ذي الحليفة مرفوعًا: «**لا تقوم الساعة حتى يبلغ البناء سليعًا**[٥]» الحديث.

[بيان موضع سلاح]

قلت: سلاح كقطام موضع أسفل خيبر، وضبطه ابن سيد الناس بكسر أوله، وهيف بمثناة تحتية وفاء، موضع على ميل من بئر المطلب، وسبعة أميال من المدينة، وسليع تصغير سلع، هو الذي عليه حصن أمير المدينة الذي ابتناه جمّارة بن

---

(١) رواه مسلم (٤/٢٢٢٨).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢/٤٠٣).

(٣) ذكره الذهبي في ميزان الاعتدال (٤/٢٢٧)، وابن حجر في لسان الميزان (٣/٣٧٧).

(٤) لم أقف عليه.

(٥) لم أقف عليه.

تيخة قبل السبعين وستمائة، فكان عليه بيوت أسلم بن قصي، قال جميع ذلك في خلاصة الوفا.

قلت: فدلَّ كلا الحديثين مع ما في معناها ما ذُكر على اتصال العمارة آخر الزمان بالمدينة، وكثرة خيراتها المكينة، ودوران المرج والأنهار بطرقها، وإحاطة المياه والسكان برحابها.

[ذكر عموم العمران لجزيرة العرب]

وقد يكون أراد النبي ﷺ بأرض العرب في الحديث الأول عموم جزيرة العرب، فيشمل المدينة وغيرها من كل ما بين الشام إلى الحرمين وما دونهما، ولا شكَّ أن هذا أمر حصل الآن، وشاهده الحُجاج في تلك الأقطار بسبب وصول السكة الحديدية إلى ما هنالك من الطلول والآثار، فإن للوابور محطات يقف فيها سيره بعد مشي كل نصف ساعة، يجد المسافر فيها المياه والخضر والسكان وكل ما يطلب يُحضر، وبسبب ذلك عمَّ الأمان غالب تلك الجهات، وسيزداد ذلك فيما هو من الأزمان آتٍ، فيمكن مع ذلك انطلاق الدواب في المروج مختلطة، وسير الفرد وحده لا يخاف إلا الله.

وهو الذي أشار إليه الرسول ﷺ بقوله كما سبق عن مسند أحمد: «**لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا، وحتى يسير الراكب بين العراق ومكة لا يخاف إلا ضلال الطريق**[1]».

وقوله ﷺ: «**لا يخاف إلا ضلال الطريق**» من معنى آخر أشار له سيظهر أو ظهر وانقضى؛ لأن السفر بسكة الحديد لا يخاف معها ضلال الطريق، فيحتمل أن من يضل تكون طريقه على غير سمتها، نعم يعم الأمان ما بين مكة والعراق بسببها أو غيرها، والله أعلم.

كما أن المحلات التي أشار ﷺ بوصول العمارة إليها بحوالي المدينة، كسلع وهيف وشجرة ذي الحليفة، إن لم يكن ظهر الآن كله فجله محقق الظهور، إذا اتصلت مكة بالمدينة بسكة الحديد، فتمر على محلاتٍ مما ذكر ﷺ أن العمارة تصل إليها نفسها أو بعضها، أو بعض فروعها المتصلة بأصولها، وهكذا فافهم، والمستقبل يكشف المخبئات، ويُظهر الأسرار المكتومات، والعجائب التي كانت قبل من

---

(١) تقدم تخريجه.

الموهومات، فهنيئًا لنا بهذا الرسول، الذي لم يترك نبئًا إلا وبه أخبرنا مما هو حال أو ما سيؤول.

فالحمد لله على كوننا من أتباعه، وانتسبنا إلى عليٍّ جنابه، وطويل باعه.

وإذا قيل في الآخرين من أهل دينه:

قلوبُ العارفين لها عيون ترى ما لا يرى للناظرين
وأجنحةٌ تطير بغير ريشٍ إلى ملكوت رب العالمين

فماذا يُقال في سيد الأرسال وممد كل الأملاك وما لله من والٍ.

***

[بيان الإخبار بحادثة القرامطة]

ومن أعجب ما وقع من الأخبار بالمغيّبات عن أصحابه ﷺ فشوهدت طبق الأخبار، ما أخرجه ابن عساكر عن الحسن بن محمد العلوي قال: كنت بالكوفة وأنا صبيٌّ في المسجد الجامع، وقد جاء القرامطة – وهم قومٌ من الملاحدة الرَّوافض، خرجوا في دولة العباسيين، وأخرجوا الحجر الأسود من ركنه المعظم- وكان أهل الكوفة قد رووا عن علي أمير المؤمنين كرَّم الله وجهه أنه قال: كأني بالأسود الدَّنداني من أولاد حام قد دلّي الحجر الأسود من القنطرة السابعة من مسجدي هذا، يُقال له: رخمة، وذكروا اسمه بالحاء رحمة.

قال: فلما دخلوا المسجد، قال القرمطي: يا رخمة – بالخاء - قم، فقام أسود دنداني من أولاد حام، كما ذكر أمير المؤمنين فأعطاه الحجر، وقال: اطلع إلى سطح المسجد، ودلِّ الحجر، فأخذه وطلع، فجعل يدليه من القنطرة الأولى، وكان إنسانًا دفعه إلى الثانية، وكان كل ما أراد أن يدليه من القنطرة مشى إلى قنطرةٍ أخرى، حتى وصل إلى القنطرة السابعة ودلاه منها، فكبر الناس لقول أمير المؤمنين، وتصحيح قوله.

قال الحافظ الأسيوطي في الخصائص الكبرى عقبه: مثل هذا لا يُقال من قبل الرأي، إنما يُقال عن توقيفٍ، وقد كانت فتنة القرامطة وأخذهم الحجر الأسود سنة سبع عشرة وثلاثمائة.

قلت: وذلك في خلافة المقتدر، والذي أخذه أبو طاهر القرمطي، وافى الحاج يوم التروية، فقتل الحجيج في المسجد الحرام قتلاً ذريعًا، وطرح القتلى في بئر

زمزم، وضرب الحجر بدبوس فكسره، ثم اقتلعه، وأقام بجيوشه بمكة أحد عشر يومًا، ثم رحلوا، وبقي الحجر الأسود عندهم أكثر من عشرين سنة، ودفع لهم في رده خمسون ألف دينار، فأبوا رده حتى أُعيد في خلافة المطيع.

راجع فتنة هؤلاء الضلال في تاريخ الكامل لابن الأثير الشيباني[١].

* * *

الحديث الثالث

[الخروج إلى الشام ابتغاء الصحة]

وجدته في جمع الجوامع معزوًا للديلمي عن أبي هريرة ﷺ بلفظ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يخرج الناس من المدينة إلى الشام يبتغون الصحة**[٢]».

قال أحمد بن مصطفى ضياء الدين الكمشخانوي في لطائف الحكم: له شواهد.

وقال أيضًا: (حتى يخرج الناس من المدينة): أي مدينة الرسول ﷺ.

(إلى الشام يبتغون فيه الصحة): أي يطلبون فيها صحة الأبدان لا صحة الإيمان، وإلا فالمدينة أعظم طلب بصحة الإيمان، وهي بديهي في جميع الأزمان انتهى.

قلت: هذا ما أمكن ظهور مصداقه إلا بعد ظهور سكة الحديد، ذات الفضل المديد؛ لسهولة الوصول من المدينة إلى الشام عليها في نحو يومين أو ثلاثة، وإلا فلو كان ذلك بالسير على الجمال والدواب لزاد الطالب للصحة مرضًا، ولما صادف لنفسه غرضًا، أما الآن فلو شاء أحد أن يصلي جمعة في حرم المدينة، والجمعة الثانية في حرم القدس لاستطاع، وإذا قدر الله ووصلت السكة إلى مكة، فإن الإنسان يستطيع أن يطوف في جمعة واحدة على المساجد الثلاثة، وناهيك بهذا في الإغراب، ونهاية الإعجاب.

* * *

[حديث أنس في صفة حج الناس آخر الزمان]

ومن نحو هذا في الجملة ما أخرجه الخطيب في تاريخه والزبير بن بكار في

---

(١) انظر: تاريخ ابن خلدون (٣٦٧/٢)، (٤٤٣/٣).

(٢) رواه الديلمي في الفردوس (٨١/٥).

الموفقيات، وابن الجوزي، وابن الأبار القضاعي في تكملة الصلة البشكوالية، وهذا سياق الأخير في ترجمة مخلد بن عبد الرحمن الأندلسي من تكملته: أنبأني أبو عمرو بن عات في آخرين عن أبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي الواعظ قال: أخبرنا أبو منصور القزاز، أخبرنا أبو بكر الخطيب، وكتب إلَيَّ أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن المقير، يخبرني عن أبي (المعالي الفضل) بن الأسفراييني عن الخطيب قال: أنا عبد الله بن أحمد بن حمدويه قال: عبد الرحمن بن الحسن السرخسي قال: قدم علينا الحج قال: حدَّثني إسماعيل بن جميع أنا مغيث بن أحمد، عن فرقد السبخي، حدَّثني سليمان بن عبد الرحمن، عن مخلد بن عبد الرحمن الأندلسي، عن محمد بن عطاء، عن جعفر بن سليمان قال: نا ثابت عن أنس بن مالك قال: قال النبي ﷺ: «**يأتي على الناس زمانٌ، يحج أغنياؤهم للنزهة، وأوساطهم للتجارة، وقراؤهم للرياء والسمعة، وفقراؤهم للمسألة**[1]».

[بيان جولان الدجال في الأرض]

تتمة: قد انحلَّ بظهور هذه السكة الحديدية إشكالات، ومع وجودها أجوبة عن أحاديث كانت مستحيلات عند قوم، وعند قوم من المفروضات المحتملات، منها ما جاء في أحاديث الدجال أنه يسيح الأرض كلها في أربعين يومًا، وسرعته في السير كالغيث استدبرته الريح[2].

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٥/٤٤٤)، والخطيب البغدادي في تاريخه (١٠/٢٩٦)، والزبير بن بكار في الأخبار الموفقيات (طبع أوقاف العراق).

(٢) قال الشيخ العدوي في المشارق (ص٢٧٠) بتحقيقنا: وفي رسالة الشيخ الصبان وفي مسند أحمد من حديث جابر: يخرج الدجال في خفةٍ من الدين، وإدبارٍ من العلم، أربعون ليلة يسيحها في الأرض، أول يوم منها كالسنة، وثاني يوم كالشهر، وثالث يوم منها كالجمعة، وسائر أيامه كأيامكم هذه، وله حمار يركبه ما بين أذنيه أربعون ذراعًا، فيقول للناس: أنا ربكم، وربكم ليس بأعور مكتوب بين عينيه: كافر، يقرأه كل مؤمنٍ كاتب وغير كاتبٍ، يرد كل ماءٍ ومنهلٍ إلا المدينة ومكة، حرمهما الله تعالى عليه، وقامت الملائكة بأبوابهما، ومعه جبال من خبزٍ، والناس في جهدٍ إلا من اتَّبعه، ومعه نهران أنا أعلم بهما، منه نهر يقول: الجنة، ونهر يقول: النار، فمن أدخله الذي يسميه الجنة فهو في النار، ومن أدخله الذي يسميه النار فهو في الجنة.

قال: وتُبعث معه شياطين تلكم ومعه فتنة عظيمة، يأمر السماء فتمطر، فيما يرى الناس، ويقتل نفسًا ويحييها، فيقول: هل يفعل مثل هذا إلا الرب، فيفر الناس إلى جبل الدخان

[بيان خروج المهدي[1]]

بالشام فيحاصرهم، فيشتد حصارهم.
وفي رواية: «إن الدجال يخرج من أصبهان، ومعه تسعون ألفًا من اليهود، وهو أشد فتنة على الناس».
ثم قال: وفي المواهب اللدنية أيضًا: وقد استنبط العارف بالله ابن أبي جمرة من قوله ﷺ المروي في البخاري: «ليس من بلدٍ إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة» التساوي بين مكة والمدينة حيث قال: وظاهر هذا الحديث يعطي التسوية بينهما في الفضل؛ لأن جميع الأرض يطأها الدجال إلا هذين البلدين، فدلَّ على تسويتهما في الفضل.
قال شارحها العلاَّمة الزرقاني: وقوله ليس من بلدٍ قال الحافظ: هو على ظاهره وعمومه، قال : وبقية الحديث ليس من نقابهما نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونهما، إلا أن قوله: أخبروني عن بحيرة طبرية، فأجابه الصحب بقولهم: هي كثيرة الماء، ينافيه ما ذكره شُرَّاح الهمزية، وخلافهم من ذهاب مائها ببعثة النبي ، اللهم إلا أن يُقال: لعل المراد بالذهاب ذهاب البعض، والله أعلم بالحقيقة.

(١) فائدة: قال الشيخ الحمزاوي العدوي: وفي القرطبي من حديث ابن مسعود وغيره: «أنه يخرج في آخر الزمان من المغرب الأقصى، يمشي النصر من بين يديه أربعين ميلاً، راياته بيض وصفر، فيها رقوم فيها اسم الله الأعظم مكتوب، فلا تنهزم له راية، فيبعث هذه الرايات مع قومٍ قد أخذ الله ميثاق النصر والظفر، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢]- الحديث بطوله وفيه:- فيأتي الناس من كل جانبٍ ومكانٍ، فيبايعونه يومئذٍ بين الركن والمقام، وهو كاره لهذه المبايعة الثانية بعد البيعة الأولى بالمغرب» انتهى.
وفي رسالة الشيخ الصبان قال: يؤخذ من أحاديث أُخر أنه يخرج: أي المهدي من المشرق من بلاد الحجاز، والقول بأنه يخرج من المغرب لا أصل له كما نبّه عليه العلقمي انتهى.
قلت: ولعل الجمع ممكن عملاً بالروايتين، بأن يحمل أحاديث المشرق على الظهور التام، بدليل المبايعة الثانية بين الركن والمقام بعد البيعة الأولى، كما في رواية القرطبي.
وهذا من المحقق الصبان غير لائقٍ بمقامه؛ فإن رواية القرطبي المفيدة للمبايعة مرتين قد وافقه فيها الإمام ابن حجر، وكذلك القطب الشعراني قد أفادها في مختصره، ولفظه: رُوي أنه يخرج في آخر الزمان رجلٌ يُقال له: «المهدي» من أقصى المغرب، يمشي النصر بين يديه أربعين ميلاً، راياته بيض وصفر، فيها رقوم فيها اسم الله الأعظم مكتوب، فلا تنهزم له راية، وقيام هذه الرايات وانبعاثها من ساحل البحر بموضع يُقال له: ماسة من جبل المغرب، فيبعث هذه الرايات مع قومٍ قد أخذ الله تعالى لهم ميثاق النصر والظفر، أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون، إلى أن قال: فيأتي الناس من كل جانبٍ ومكانٍ، فيبايعونه بمكة بين الركن والمقام، وهو كاره لهذه المبايعة الثانية بعد البيعة الأولى التي بايعه الناس

بالمغرب عليها انتهى. وحيث أمكن الوصل والجمع، فسلوكه أولى لا سيما، والإمام القرطبي من أكابر المحدثين مع الموافقة من الإمامين المتقدم ذكرهما.
ثم قال: وقال الشيخ القطب الغوثي سيدي محيي الدين بن العربي في الفتوحات: اعلموا أنه لا بدَّ من خروج المهدي، لكن لا يخرج حتى تُملأ الأرض جورًا وظلمًا، فيملأها قسطًا وعدلاً، وهو من عترة رسول الله ﷺ، من ولد فاطمة رضي الله عنها، جده الحسين بن علي بن أبي طالب، ووالده الإمام حسن العسكري ابن الإمام علي النقي -بالنون- ابن الإمام محمد التقي - بالتاء - ابن الإمام علي الرضا بن الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر بن الإمام زين العابدين علي بن الإمام الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب ﷺ، يواطئ اسمه اسم رسول الله ﷺ، يبايعه المسلمون بين الركن والمقام، يشبه رسول الله ﷺ في الخَلق بفتح الخاء، وقريبًا منه في الخُلق، أسعد الناس به أهل الكوفة، يقسم المال بالسوية، ويعدل به في الرعية، يمشي الخضر بين يديه، يعيش خمسًا أو سبعًا أو تسعًا، يقفو أثر رسول الله ﷺ، له ملك يسدده من حيث لا يراه، يفتح المدينة الرومية بالتكبير مع سبعين ألفًا من المسلمين، يعز الله به الإسلام بعد ذله، ويحييه بعد موته، ويضع الجزية، ويدعو إلى الله بالسيف، فمن أبى قُتل، ومن نازعه خُذل، يحكم بالدين الخالص عن الرأي، ويخالف في غالب أحكامه مذاهب العلماء، فينقبضون لذلك؛ لظنهم أن الله تعالى لا يحدث بعد أئمتهم مجتهدًا.

وطال في ذكر وقائعه معه ثم قال: واعلم أن المهدي إذا خرج يفرح به جميع المسلمين خاصتهم وعامتهم، وله رجال إلهيون يقيمون دعوته وينصرونه، هم الوزراء له، يتحملون أثقال المملكة عنه، ويعينونه على ما قلّده الله به.

ينزل عليه عيسى ابن مريم ﷺ بالمنارة البيضاء مشرق دمشق، متكئًا على ملكين، ملك عن يمينه، وملك عن يساره، والناس في صلاة العصر، فيتنحى الإمام من مقامه فيتقدم فيصلي بالناس، يؤم الناس بسنّة سيدنا محمد ﷺ، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويقبض الله إليه المهدي طاهرًا مطهرًا.

وقال في محلٍّ آخرٍ من فتوحاته: قد استوزر الله للمهدي طائفة، خبأهم الله تعالى في مكنون غيبه، أطلعهم كشفًا وشهودًا على الحقائق، وما هو إلا أمر الله في عباده، فلا يفعل المهدي شيئًا إلا بمشاورتهم، وهم على أقدام رجال من الصحابة الذين صدقوا الله ما دعاهم إليه، وهم من الأعاجم، ليس فيهم عربي، لكن لا يتكلمون إلا بالعربية، لهم حافظ من غير جنسهم، ما عصى الله قط، هو أخص الوزراء.

ثم قال: هؤلاء الوزراء لا يزيدون عن تسعة ولا ينقصون عن خمسة؛ لأن رسول الله ﷺ شكّ في عددهم مدة إقامته من خمس إلى تسع؛ للشك الذي وقع في وزرائه، فلكل وزيرٍ معه إقامة سنة، فإن كانوا خمسة عاش خمسًا، وإن كانوا تسعة عاش تسعًا، ولكل سنةٍ أحوال مخصوصة، وعلم يختص به وزيره... إلى آخر ما قال.

وقال في محلٍ آخرِ في فتوحاته: إنه يحكم بما ألقى إليه ملك الإلهام من الشريعة، وذلك بأن يلهمه الشرع المحمدي فيحكم به، كما أشار إليه حديث: «المهدي يقفو أثري لا يخطئ»، فعرَّفنا رسول الله ﷺ أنه متبعٌ لا مبتدعٌ، وأنه معصومٌ في حكمه، فعُلم أنه يحرم عليه القياس مع وجود النصوص التي منحه الله إياها على لسان ملك الإلهام، بل حرّم بعض المحققين القياس على أهل الله؛ لكون رسول الله ﷺ مشهودًا لهم، فإذا شكّوا في صحة حديث أو حكم رجعوا إليه في ذلك، فأخبرهم بالأمر الحق تعظيمًا ومشافهةً، وصاحب هذا الحال والمشهد لا يحتاج إلى تقليد أحد من الأئمة غير رسول الله ﷺ.

قال العلاَّمة الصبان في رسالته لأهل البيت متعقبًا للعارف ابن العربي في فتوحاته بقوله: لا يخفى أن ما ذكره العارف ابن العربي من كون جده الحسين منافٍ لما مرَّ من توجيه بعضهم أن جده الحسن، وأن ما ذكره العارف أيضًا من كون والده الحسن العسكري منافٍ لما مرَّ في بعض الروايات من كون اسم أبيه مواطئًا لاسم أبي رسول الله ﷺ، وما ذكره أيضًا من كون مدته إما خمسًا أو تسعًا مخالف لما مرَّ عن الصواعق، أخذًا من الأحاديث السابقة من كون المحقق سبع سنين، وأن ما ذكره أيضًا من كونه يضع الجزية ويقتل من لم يسلم منافٍ لما مرَّ من كون ذلك لعيسى، وأن ما ذكره من كون عيسى هو الذي يصلي بالناس حين ينزل منافٍ لما مرَّ من كون الذي يصلي بهم المهدي، وأن ما ذكره من أن عيسى ينزل والناس في صلاة العصر منافٍ لما في السيرة الحلبية من أنه ينزل والناس في صلاة الفجر انتهى.

قلت: وهذا من مثل هذا الإمام المحقق في غاية الغرابة، لا سيما التورك على مثل هذا العارف، وذلك لإمكان الجمع والإصلاح في جميع ما ردَّه عليه، فقوله: لا يخفى أن ما ذكره العارف ابن العربي من كون جده الحسين منافٍ لما مرَّ من توجيه بعضهم أن جده الحسن لا مانع من أن يُراد بالحسن في كلام البعض الحسن العسكري، وهو من أولاد الحسين، وإنما نُسب إليه خاصة لكونه كان أشهر آبائه من قبل أبيه؛ لأنه كان كما ذكره المعترض نفسه في مناقب سيدي الحسن أنه كان من الأئمة الأخيار، صاحب الشهرة العظيمة في العلم والمعارف، ولم يكن في الحديث الحسن بن علي على أنه لو قيل ذلك لأمكن ما تقدم أيضًا؛ لما علمت من تمام شهرته، وهو وإن كان بعيدًا يتقوّى برواية كونه من ولد الحسين، والسُّنة يفسر بعضها بعضًا، وعلى تسليم ذلك فتوجيه البعض كونه من ولد الحسن لا يصلح أن يكون له حجة في الرد على مثل هذا العارف.

وقول المحقق ثانيًا ما ذكره العارف أيضًا من كون والده الحسن العسكري منافٍ لما مرَّ في بعض الروايات من كون اسم أبيه مواطئًا لاسم أبي رسول الله ﷺ لا يصح من مثل هذا الإمام، وذلك أنه من المعلوم أنه يُولد في آخر الزمان، كما سيذكره العلاَّمة المتعقب، نقلاً عن الشعراني ولفظه.

وقال سيدي عبد الوهاب الشعراني في اليواقيت والجواهر: المهدي من ولد الإمام الحسن العسكري، ومولده ليلة النصف من شعبان، سنة خمس وخمسين ومائتين بعد الألف، وهو

باقٍ إلى أن يجتمع بعيسى ابن مريم عليه السلام، هكذا أخبرني الشيخ حسن العراقي المدفون فوق كوم الريش المطل على بركة الرطل بمصر المحروسة، ووافقه على ذلك سيدي علي الخواص انتهى. بلفظه.

إذا علمت ذلك النقل من هذا المحقق عن القطب الشعراني ظهر لك عدم المنافاة ضرورة، وذلك لأن الإمام سيدي الحسن العسكري بينه وبين جده الحسين ستة من الآباء، فيعلم من ذلك أن الإمام المذكور ليس والدًا لسيدي المهدي مباشرة، وأن والده مباشرة عبد الله كما في بعض الروايات، ويعلم أن تخصيصه الإمام العسكري بالذكر لكونه أول المشاهير من قبل أبيه عبد الله المذكور، وبذلك يتقوّى الاحتمال الأول من دفع المنافاة.

وقول العلاَّمة المحقق ثالثًا وما ذكره أيضًا من كون مدته إما خمسًا أو سبعًا أو تسعًا مخالف لما مرَّ من الصواعق أخذًا من الأحاديث السابقة، من كون المحقق سبع سنين فهو في غاية الغرابة أيضًا، وذلك أن العارف في المحل الأول من الفتوحات، قال: يعيش خمسًا أو سبعًا أو ثمانيًا أو تسعًا، وقال في محلٍّ آخرٍ: له وزراء لا يزيدون عن تسعة، ولا ينقصون عن خمسة، فأنت تراه في المحلين لم يقطع بواحدٍ بعينه، والشك في ذلك العدد لا ينافي القطع الذي عيَّنه ابن حجر؛ لأن المقطوع به من أفراد المشكوك فيه، غير أنه لم يعينه بخصوصه احتياطًا لرواية الجميع، ولعل الجزم بالسبع من ابن حجر لما ترجح عنده، وهذا لا ينافي ما ذكره العارف على أن ابن حجر في الصواعق ذكر روايات متعددة موافقة لروايات العارف ابن العربي، ولفظه روى الطبراني والبزار بعد أن ذكر حديثًا طويلاً، وفيه يمكث فيهم سبعًا أو ثمانيًا، فإن أكثر فتسعًا.

قال: وفي رواية للترمذي: «أن في أمتي المهدي، يخرج يعيش خمسًا أو سبعًا أو تسعًا، فيجيء الرجل إليه فيقول: يا مهدي أعطني، فيحثي له في ثوبه ما استطاع أن يحمله»، ثم بعد أن ذكر هذه الأحاديث من غير تضعيفٍ لها ذكر بعد ذلك ما ترجَّح عنده رواية سبع سنين بقوله: الذي اتفقت عليه الأحاديث سبع سنين من غير شكٍّ، وعلى تسليم ذلك، فمثل هذا العارف لا يرد عليه بما في الصواعق، وإن كان من أكابر الحفاظ فلا يكون ما فيها حجة في الرد عليه.

وقول المحقق رابعًا وما ذكره أيضًا من كونه يضع الجزية، ويقتل من لم يسلم، منافٍ لما مرَّ من كون ذلك لعيسى لا مانع من إمكان الجمع، فإن اتصاف عيسى بذلك لا ينافي اتصاف المهدي به؛ لأن من المعلوم أن كلاً منهما إمام متَّبع، ومقرر لشريعة رسول الله ﷺ، فلا مانع من استوائهما في هذا الأمر، ويؤيد هذا ورود فتح الكنوز في وقته، فلا نفع لأخذ الجزية حينئذٍ حتى يشرع أخذها؛ لأن الوسيلة إذا لم يترتب عليها مقصدها لا تشرع على أنه لا مانع من كون ذلك على لسان عيسى في آخر ظهور المهدي عند اجتماعه مع عيسى؛ لما ورد من مساعدة المهدي لعيسى على قتل الدجال، وهذا يفيده العارف الشعراني في مختصره جوابًا عما رواه ابن ماجه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزداد الأمر إلا شدة، ولا الدنيا إلا إدبارًا، ولا

الناس على الدنيا إلا شحًّا، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس، ولا مهدي إلا عيسى ابن مريم».

قال العارف: قال الإمام القرطبي: وهذا لا ينافي ما تقدَّم في أحاديث المهدي؛ لأن معناه تعظيم شأن عيسى لعصمته وكماله، فلا ينافي وجود المهدي.

قال العارف: ويؤخذ ذلك من حديث: «المهدي من أهل بيتي، يملأ الأرض عدلاً، وأنه يخرج مع عيسى ﷺ يساعده على قتل الدجَّال بباب لدّ من أرض فلسطين، وأنه يؤم هذه الأمة، ويصلي خلف عيسى ابن مريم» انتهى.

فأنت تراه قد ذكر خروجه معه للمساعدة على الدجال، فيكون لا مانع من نسبة ما تقدَّم إليهما جميعًا، وإنما تخصيص عيسى في بعض الروايات بذلك تعظيمًا لشأنه، كما سمعته من الإمام القرطبي، وهذا وإن كان تطفلاً منا على مثل هذا الإمام إلا أن سلوك الإصلاح والوصل أولى بالاتباع، وقول المحقق في الاعتراض المار، وأن ما ذكره من كون عيسى هو الذي يصلي بالناس حين ينزل منافٍ لما مرَّ من كون الذي يصلي بهم المهدي، لا مانع من إمكان الجمع بإمكان تعدّد الصلوات عملاً بالروايتين، فإن الحين صادق بالزمن المتسع، وإن كان المتبادر من تقييده بالنزول عدم الاتساع، لكن استعماله ظرفًا متسعًا لقرب ما بين الصلاتين، يكون فيه عمل بالروايتين، فيكون المصلي أولاً حين النزول في صلاة الصبح هو المهدي، وفي صلاة العصر عيسى.

ثم بعد كتبي لتسويد هذا الجواب الأخير، رأيت العلاَّمة ابن حجر ذاكرًا ما يفيده بقوله: ما ورد أن المهدي هو الذي يصلي بعيسى هو الذي دلَّت عليه الأحاديث، قال: وما صححه السعد التفتازاني من أن عيسى هو الإمام بالمهدي لأنه أفضل، فإمامته أولى، فلا شاهد له فيما علل به؛ لأن القصد بإمامة المهدي بعيسى إنما هو إظهار أنه نزل تابعًا لنبينا بشريعته غير مستقلّ بشيءٍ من شريعة نفسه، واقتداؤه ببعض هذه الأمة مع كونه أفضل من ذلك الإمام الذي اقتدى به فيه من إذاعة ذلك، وإظهاره ما لا يخفى، على أنه يمكن الجمع بأن يُقال أن عيسى يقتدي بالمهدي أولاً؛ لإظهار ذلك الغرض، ثم بعد ذلك يقتدي المهدي به على أصل القاعدة من اقتداء المفضول بالفاضل، وبه يجتمع القولان، وبهذا الجواب يُجاب عن الاعتراض الأخير في دفع التنافي بين الصلاتين، وقد تَمَّ بهذا الجمع بين كلام العارف، وإذا أمكن الجمع والوصل فلا ينبغي التورك، لا سيما من مثل هذا المحقق على هذا العارف، خصوصًا وكلام العارفين حجة في التصحيح للحديث أو ضعفه، وقد سبق للعلامة المعترض نقلاً عن بعض المحققين أن المهدي يُحرِّم عليه القياس، وكذلك أهل الله العارفون لشهودهم للنبي يقظةً ومشافهةً، فهم مطلعون على صحة الحديث وضعفه.

ولذلك قال سيدي أحمد بن المبارك في كتابه الإبريز: كنا معاشر العلماء نعرض كتب السُّنة على سيدي عبد العزيز الدباغ وهو أمي، ويبين لنا الحديث الصحيح من غيره، فكنا نجد ما يخبر بعدم صحته منصوصًا كذلك للحفَّاظ، إذا علمت ذلك فكلام الأستاذ حجة لا يعارضه

غيره، وجاء في بعض الروايات أنه ينادي عند ظهوره فوق رأسه ملك: هذا المهدي خليفة الله فاتّبعوه، فتقبل عليه الناس ويشربون حبه، وأنه يملك الأرض شرقها وغربها، وأن الذين يبايعونه أولاً بين الركن والمقام بعدد أهل بدر، ثم تأتيه أبدال الشام ونجباء مصر وعصائب أهل الشرق وأشباههم، ويبعث الله له جيشًا من خراسان برايات سود نصرة له، ثم يتوجّه إلى الشام، وفي رواية إلى الكوفة، والجمع ممكن، وأن الله تعالى يؤيده بثلاثة آلاف من الملائكة، وأن أهل الكهف من أعوانه.

قال الأستاذ السيوطي: وحينئذٍ فسَّر تأخيرهم إلى هذه المدة إكرامهم بشرفهم بدخولهم في هذه الأمة: أي وإعانتهم للخليفة الحق، وأن على مقدمة جيشه جبريل وميكائيل على ساقته، وأنه يكون بعد موت المهدي القحطاني، وهو رجلٌ من أهل اليمن يعدل في الناس، ويسير سير المهدي.

أما حديث أنه قال: «لا يزداد الأمر إلا شدة، ولا الدنيا إلا إدبارًا، ولا الناس إلا شحًّا، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس، ولا مهدي إلا عيسى ابن مريم فتكلم فيه»، على تقدير صحته لا مهدي معصوم إلا عيسى أولاً، مهدي على الإطلاق، سواه يأتي بعده.

قال ابن حجر في الصواعق: الأظهر أن خروج المهدي قبل نزول عيسى، وأن ظهوره بعد أن يُكسف القمر في أول ليلة من رمضان، وتُكسف الشمس في النصف منه، فإن مثل ذلك لم يوجد منذ خلق الله السموات والأرض انتهى صبان، والله أعلم.

وفي شرح الشيخ الشرقاوي على ورد الأستاذ البكري: ينزل عيسى في زمانه بالمنارة البيضاء شرق مسجد دمشق والناس في صلاة العصر، فيتنحى له الإمام فيتقدم فيصلي بالناس، يؤم الناس بسنَّة سيدنا محمد ﷺ.

قال: والمراد بالإمام أمير المهدي على دمشق، وأما هو ففي بيت المقدس، ثم يذهب عيسى إلى بيت المقدس فيقتدي بالمهدي في صلاة الصبح.

قال: وقيل: إن مدة المهدي أربعون سنة يجتمع مع عيسى في سبع سنين أو تسع، ويتقدم عليه بأكثر من ثلاثين سنة، ويتأخر عنه عيسى ببضع وثلاثين سنة؛ لأن مدة مكثه خمس وأربعون سنة.

قال: وهذا لا يعارض ما تقدم من أن غاية مكث المهدي تسع سنين.

قال: لأن التسع هي التي ينفرد فيها بملك الأرض كلها، وإن كان ملكه من ابتداء الأربعين ومولده بالمدينة، وقيل: ببلاد الغرب، ثم يهاجر من المدينة إلى بيت المقدس.

قال: وأحاديثه بلغت مبلغ التواتر المعنوي فلا معنى لإنكارها.

قال: وأما ما ورد من أنه لا مهدي إلا عيسى ابن مريم فهو مع كونه ضعيفًا عند الحفَّاظ مؤول بأن المعنى: لا مهدي معصوم مطلقًا إلا عيسى، أو المعنى: لا قول للمهدي إلا بمشورة عيسى بناءً على أنه من وزرائه انتهى.

وقال في محلٍّ آخر: وتدخل سائر الملوك في طاعته، وعند مبايعته في المرة الأولى يكون

ومنها ما جاء في أحاديث المهدي المنتظر أنه يسيح في الأرض جميعها، ويملؤها عدلاً كما مُلئت جورًا، مع ما جاء أنه يمكث في الدنيا بعد ظهوره على أشهر الروايات تسع سنين وما يقاربها.

ولذلك قال الشمس محمد بن عبد الرسول البرزنجي في الإشاعة:

ولا شكَّ أن مدة التسع فما دونهما لا يمكن أن يُساح فيها ربع أو خمس المعمورة سياحة، فضلاً عن كلها، فضلاً عن الجهاد، وتجهيز العساكر، وترتيب الجيوش، وبناء المساجد، وغير ذلك.

ومنها ما جاء في أحاديث المهدي من أن الناس بعد رجوعهم من الحج في سنة وقوفهم بغير إمامٍ، وذلك آخر الزمان يطلبون المهدي بمكة، فيقولون له: أنت فلان بن فلان؟ فيقول: بل أنا رجلٌ من الأنصار، فينفلت منهم، فيصفونه لأهل الخبرة فيه، والعرفة به، فيقولون: هو صاحبكم الذي تطلبونه، وقد لحق بالمدينة، فيطلبونه بالمدينة فيخالفهم إلى مكة، وهكذا إلى ثلاث مرات، فيصيبونه الثالثة بمكة، ويبايعونه، وذلك ليلة عاشوراء من تلك السنة، فالمدة من احتياجهم إليه،

= عمره خمسًا وعشرين سنة، وقيل بل أكثر من سبعمائة سنة.

وقال في محلٍ آخر بعد نقله عبارة العارف ابن العربي المتقدمة وهي قوله: يفرح به عامة المسلمين، ويبايعه العارفون بالله من أهل الحقائق، وله رجال إلهيون يقيمون دعوته وينصرونه هم الوزراء... إلى أن قال: وهم تسعة على أقدام رجال من الصحابة، لهم حافظ من غير جنسهم، ما عصى الله قط، هو أخص الوزراء، وأفضل الأمناء، قال: انتهى.

قال: وذلك الحافظ هو عيسى، فيكون هو وزيره الأخص في بعض المدة وإن انفرد بعده، وهو ليس من جنس الوزراء؛ لأنهم من الأعاجم يعني الفرس، وعيسى من بني إسرائيل انتهى.

وللقطب الشعراني في كتابه «بهجة النفوس والأسماء» قال: أخبرني سيدي حسن العراقي بأنه اجتمع بالإمام المهدي بجامع بني أمية، ولقَّنه الذكر، وأمره بصيام يوم وإفطار يوم، وأن يصلي كل ليلةٍ خمسمائة ركعة أبدًا ما عاش، وأمره أن يسيح في البلاد، قال: فخرجت بعد إلى الشام سائحًا، فسحت سبعًا وخمسين سنة حتى وصلت سد إسكندر ذي القرنين، ومسكت القفل بيدي... إلى أن قال: وقال لي المهدي: عمري الآن مائة وسبع وثلاثون سنة انتهى.

فلينظر هذا مع الذي سبق نقله للعلاَّمة الصبان في عمره، وذلك العلاَّمة الشرقاوي.

وبيعتهم إياه نحو من عشرين يومًا.

حتى قال البرزنجي في كتاب الإشاعة: لا يشكل إتيانهم المدينة مرتين أو ثلاثًا مع وقوع البيعة ليلة عاشوراء، أن المدة بين انقضاء المناسك إلى ليلة عاشوراء قريب من عشرين يومًا أو خمس وعشرين يومًا، ومسافة ما بين الحرمين عشر مراحل أو أكثر بالسير المعتاد، مع ما يتخلل ذلك من طلبهم له في كل من الرحمين في كل مرةٍ؛ إذ يمكّنهم الإتيان على الركاب في خمسة أيام، فيمكن تكراره في خمسة وعشرين، على أنهم كلهم أولياء، فيمكنهم أن تُطوى لهم الأرض، أو يكون من أصحاب الخطوات، والله أعلم.

فإنّ مع وجود سكة الحديد هذه ووصولها للحجاز، والظن أو التحقيق أنها ستصل قريبًا إلى مكة أيضًا، يمكِّن للرجل أو الوفد أن يذهب إلى المدينة من مكة ويرجع إلى مكة في الجمعة مرات، وكذلك عليها يمكن للمهدي إن وجد أن يطوف في الدنيا ويحكمها في تسع، بل أقل، وما المانع للمهدي إن ظهر من استعمال سكة الحديد، والسير عليها.

وقد استعمل النبي ﷺ في غزوة الطائف المنجنيق، ولم تكن العرب تعرفه قط لما وصفه له سيدنا سلمان، وأخبره أن فارس يستعملونه في حروبهم، واستعمل ﷺ أيضًا الخندق محيطًا بالمدينة مرة أخرى، وهكذا.

وأما ما ذكرناه في الدجال فيحتمل أنّ دورانه على الأرض بالسحر أو سكة الحديد أيضًا، فإن الطواف حول الأرض بها الآن مع وابور البحر يمكن في أربعين يومًا، بل وقع، وكل ذلك مصداق قوله سبحانه: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾.

***

[بيان مصادر الشيخ المصنف]

وهنا انتهى ما أملت جمعه، وما أُلهمت وضعه.

وقد ظهر لك من فحوى ما كتبناه أن الأحاديث المشيرة أو الملوِّحة بتصريحٍ أو غيره إلى ظهور سكة الحديد غاية ما جمعناه منها نحو العشرة، عن ثمانية من الصحابة:

عن أبي هريرة عند البخاري، وعن أبي سعيد الخدري، وعن أبي موسى عند الطبراني، وعن أبي ذر عند الطبراني أيضًا والحاكم، وعن ابن مسعود عند أحمد،

والبزّار، والطبراني، والحاكم، وعن عبد الله بن زبيب الجندي عند عبد الرزاق، والطبراني، وسمرة عند الطبراني أيضًا وغيرهم.

وفي ضمن بعض هذه الأحاديث أحاديث أُخر من معناها عن صحابة آخرين حسبما مرَّ، كل ذلك مبسوط بمعونة الله تعالى.

* * *

[بيان شكوى الحال]

ولا شكَّ أن من تتبع كتب السُّنة يجد أكثر من هذا عددًا، وأوفر مما نقلناه مددًا؛ إذ الإحاطة إنما هي لله وحده، سيما.

وقد عنيت بجمعه وترتيب وضعه بعد فراقي لغالب ما أحتاج إليه هذا الباب من الكتب الجديدة، والمدونات المجيدة، لمصيبة نزلت وداهية جرت.

نسأل الله السّلامة، والعافية في الدِّين الدُّنيا، والآخرة.

فليكن منك اكتفاء بهذا القدر، ففيه أعظم نفع وخير، والله إنّه لجدير بالتحصيل، وإنّ المؤمن الصادق عليه أكثر تعويل، وأن يبذل في تحصيله الأنفس والنفيس، ويستغني به كلّ عالم ومطلع عن الدّرس والتدريس؛ إذ هو معجزةٌ ظهرت للنبي ﷺ في هذا الحين.

فالحمد لله على أن وفق هذا العبد بجمعها وهو سبحانه ذو الفضل المبين.

* * *

[قصيدة في وصول السكة الحديدية إلى محطة معانٍ]

خاتمة التي هي للتطويل حاسمة، أنشدني بدمشق أحد شعرائه، الشيخ محمد سليم قصاب حسن لنفسه لما وصلت السكة الحديدية الحجازية إلى محطة معان ما تستحسنه إذا سمعته، وتغبط به إذا حصلته أو رأيته:

عظائم آثار تعمُّ الورى بِشرا	أَعَادَتْ مُفَازَات الفلا جنّة خضرًا
هي الهمّة العليا والنعمة التي	على معشرِ الإسلامِ تستوجب الشّكرا
عنايةُ سلطان الزّمان وحيده	أجلّ بني عثمان أعلاهم قدرًا
أَقَامَ إلى الدّين القويم معالمًا	بعزم اهتمام رام يستصغر الدّهرا
أَزَاحَ الجبالَ الصُّمَّ وهي رواسخٌ	وجَاءَ بها قَدْ شَادَ بالآية الكبرى

بوارج بل هذي بوارق أَوْمَضتْ … فلم تملك العينان من لحظها شدرا
بواخر تجري كالجبالِ قواصدًا … حمى طيبة الفيحا فطَابَ لها المرا
تمرّ بنا مرّ السحاب يسيرها … إلى مَهْبَطِ التنزيل سبحان من أسرى
كواكب أم هذي الجواري مراكب … تَسِيُر بنا برًّا كما قد جَرَتْ بحرًا
يُظللها كالسّحب مسك دُخَانَها … فتمتلئ الأرجاء من طيبة نشرًا
تقرّب بيت الله من كلّ قاصدٍ … فيسعى على الراحات يَغْتَنِمُ الأجرا
يد بها لوجد المبرح سائقًا … لأم القرى شوقًا فَلَمْ يَسْتَطع صبرا
يذكرنا عهد البساط مسيرها … فكان بمسراها لنا آية أخرى
فذاك على مرِّ الرّياح رواحه … وهذه على الخط الحديد غدا شهرًا
نرى حيث وافى الفوز فيه وهذه … معان بعون الله قد أصبحت مصرا
لقد أمّها يوم الجلوس مواصلاً … فتمَّ لنا عيدان بالبشر والبشرى
سرى يحمل الوجد العظيم تفاخرًا … ويا حبذا وفد المليك وما أجرى
مظاهر إحسان أعَاظم دَولة … نُجُومٌ فخار أشرقت تقتضي بدرا

***

[قصيدة للشيخ الشهاب الحملاوي]

وأنشدني بمصر القاهرة سنة: ١٣٢٣هـ لنفسه محبنا العالم المشارك الشهاب أحمد ابن محمد الحملاوي الشافعي ناظر مدرسة عثمان باشا الدينية، وقد ركب معي في عربة:

ركبت على الوابور يومًا فخلته … بأجنحة النيران أعظم طائر
يشق عباب الجو والجو ساكن … ويطوي بساط الأرض طي الدفاتر

[قصيدة لأحد أدباء دولة تونس]

ولأحد الأدباء التونسيين:

أرأيت كيف تقارب البلدان … بالمزجيات جرت على القضبانِ
يمتد من سلك الحديد ممرّها … بالأرض وهي جوالب العمرانِ
وفروعها بين البراري خططت … خطًّا أقيم بآلة الإتقانِ
أشكاله صينت بوضع مهندس … في ملتقاها حار ذو العرفانِ

آذانها من جدول العمران أجـ ـرت ثروة تحكى بكلِّ تداني
فهي الجداول في فروع قد جرت بالأمنِ لا بالماءِ ذي الطغيانِ
ولها دوالب تستدار بها إلى حيث المراد بقصدِ أيِّ مكانِ
فترى على خط جموع محامل وصلت بها يوم التقى الجمعانِ
حتى إذا سارت فكلٌّ يقتدي في فرع مقصد أهله الركبانِ
ما إن تضل عن الطريق ولم ترع من قاصد إمساكها ببنانِ
مع أنها ليست ترى وبدت لها بالليل من مشكاتها عينانِ
خرقت لها شم الجبال بمسلك سهل يروع حماه كل جنانِ
وتبين من فوق الجسور كما جرى فوق الجبال مباهيًا بأغاني
وصل الجنوب من الشمال بها ومن شرقٍ إلى غربٍ فصال تداني
فيها قد ارْتبط من الأرض الجها ت الشاسعات بوصله استحسانِ
وتجري آلاف النفوس كما نرى في لحظةٍ قصرت عن الحسبانِ
فترى بني المعمور في عرباتها تجري بهم في سرعةٍ وأمانِ
كالريح كان غدوها شهرًا وتلـ ـك رواحها بمسير شهر ثانِ
قد حار أمري إذ ركبت بها على بعد لرؤية آية العمرانِ
ومن اصطكاك الجري خِلْت رعودها صعقت ببرق شراره الدُّخانِ
ولذلك تنفذ بالركاب لمغرب من مشرق كالسَّهم دون توانِ
وترى على بُعْد لها عدوًا حكى عدو الظبا بمكنى من اطمئنانِ
وما سُوبقت إلاَّ وقد سبقت إلى ما لاَ ينال بقوة الحيوانِ
لم تدرِ هل هي من مَعارف إذ جرَّ عشرًا شاسعًا في آنِ
فأتى به قبل ارتداد الطرف بيـ ـن سليمان الرفيع الشَّأنِ
ولو أنها ولدت لقلَّت بنت ما كانت قديمًا محملاً للجان

انتهى وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى، وكان انتهاء كتبه في جلستين: أولهما: بعد عصر يوم الإثنين إلى العشاء، وثانيهما: من الظهر إلى ما بعد العشاء من يوم الثلاثاء، متم ربيع الثاني سنة ١٣٢٨ هـ، بقلم جامعه خادم الحديث محمد عبد الحيّ ابن الشيخ عبد الكبير الحسني الإدريسي الكتاني تاب الله عليه، وأصلح جميع

أحواله بالنبي وآله، والحمد لله رب العالمين.

ثم زادت بعد ذلك زيادات، وألحقت به بعد أشياء مستملحات والله تعالى يجعله خير شفيع لنا بين يدي سيدنا محمد خير الإرسال، صلَّى الله عليه وعلى كل ما له من صحاب وآل، في أن يسأل ربه لنا في جواره، وأن نسكن في دياره، في الدنيا والآخرة، مع السلامة والعافية في الدِّين والدنيا والآخرة، إنه لا يُخيِّب من سأله، يا ذا التقوى ويا ذا المغفرة، اللهم هذا الدُّعاء وعليك الإجابة.

وحين وقف عليه العالم المشارك الأديب الكاتب الوارع السَّلس النَّظم والنثر القاضي أبو الفضل عباس بن إبراهيم المراكشي بفاس، نظم عقده، وسبك درره، وطرز جيده مدحًا، حفظه الرحمن من شرور الزمان آمين.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

[نظم ما جاء في اليواقيت الثمينة]

يقولُ عباس بن إبراهيما ... أناله خالقه النّعيما

الحمدُ لله الذي قد نبأ ... بغيبهِ رسوله المنبئا

مؤيدًا بالمعجزات الباهره ... معززًا بالمكرمات الظاهرة

أعلمه بعلمِ الأوّلين ... وعلم الآخرين مستبين

عنيت ما كان وما يكون ... بلا تناهٍ قاله المكين

صلَّى عليه الله كل حينٍ ... ما غرَّد الطائر في الفنون

وآله وصحبه الهداة ... من نقلوا لبيِّن الآيات

وبعد فالأخبار قد دلَّت على ... إعلامه بالغيب في وسط المَلاَ

إذ أخبر الرسول جمعهم علوا ... بكلِّ حادثٍ يكون فاجتلوا

فلمْ يزل يظهر كل حينٍ ... صحة ما أخبر باليقين

وهذه أحاديث الرسول ... تضمَّنت لمعجمِ العقول

وهي الإشادة لما قد يقع ... يحمد في الأمور أو يستشنع

فلم يدع من الأمور نبئًا ... إلاَّ به أعلم من قد أنبئا

وهي كثيرة فليست تُحصر ... معجزة عضدها التّواتر

وقد روى حذيفة فيما روى ... منها كثيرًا بينًا دون امترى

كمصل تبيين رؤوس الفتنة ... من وقته إلى قيام الساعة

مع بيان جملة الأسماء ... كانت لهم صاح وللآباء

وللقبيلة كذاك في السُّنن ... روى أبو داود قامع الفتن

وقد روى أحمد في مسنده ... قول أبي ذر نديم جده

تركنا رسول سادة الأمم ... صلَّى عليه ربنا باري النسم

مهما تحرك لدى السماء ... طير أفاد أحد الأنباء

ومسلم روى عن ابن أخطب ... مقالة تروقُ أهل الطلب

أخبرنا الهادي بما قد كانا ... ومَا يكون علمه أولانا

وحدَّث المغيرة بن شعبة ... كَذَا أبو مريم سامي الرتبة

حدَّثنا الهادي بما يكون ... إلى قيام ساعة يبين

والحبر عبد الله عنه أثرًا ... علم النبي ما فِي السَّماء والثرى

كذلك ما بين المشارق وما ... بين المغارب فحقق وافهما

وربنا الدنيا إليه قد رفع ... ينظر فيها كل ما فيها يقع

كنظر لكفه الشَّريف ... رواه عنه الحبر ذو التشريف

من ذي الأحاديث الشهيرة وما ... ضاهى يفاد ما نظمت محكمًا

بكل شيءٍ قد أحاطَ علمه ... وله حقًّا قد تجلَّى فهمه

موهبة من ربنا الكريم ... لذاته الواجبة التكريم

والفرق أن علم ربنا العظيم ... قدمه وجوبه أمر قويم

وهو ذاتِيٌّ لمولانا عَلا ... والكسب والحدوث كل قد جَلا

في علمِ هادي الخلق سيد الرسل ... سلام ربنا عليهم مُنْسَدل

والخمس من علومه والقلم ... واللوح ليس عنه فيه مفهم

فالله لم يُمِت جناب المصطفى ... حتى أبانَ له ما عنه اختفى

بهذا قال جازمًا من حققا ... مؤيدًا دليله منمقا

كابن أبي جمرة وابن العربي ... كذا السيوطي إمام النُّجَب

ثم الشهاب وأبو مروانا ... أتقن ما ألفه إتقانًا

وغيرهم من المحققين ... تابعهم وزاده تبينا

وإنه من جملة الأخبار ... بالغيب ما وضح كالنّهار

مثل أحاديث تقارب الزَّمان ... كونه من أشراط ساعة أبان

حيث تكون سنة كشهر ... وهو كجمعة غدًا فالتَذْر

وهي كيوم وكساعة يكون ... يوم بهذا أخبر الهادي الأمين

يعني تقارب أهالي الزَّمن ... بشرح مشكاة الإمام المتقن

لا ريب أنّ سكة الحديد ... وغيرها من حادثٍ جديد

يدخل في ذاك خلة جليه لسرعة السير بها القويه
فشهر راكب عليها يعدل سنة من على الجمال يحمل
وهكذا بقية الأقسام وأمره وضح للأفهام
تقارب الأسواق من هذا أتى فانظر إلى مصر تجده مثبتًا
يصبح في حلوان تاجر يرى يبيع في دكانه ما يشتري
وهو في مصر قراره جَلاَ فسكة قد قربت بين الملا
بينهما بُعْد مسافة تُرى يومين في سير الجمال في الثرى
ألَحِق بهذا كثرة التجارة فهي لقرب ساعة بشارة
وهي عن قربِ الزَّمان نشأت بسكة الحديد حقًّا يسَّرت
وبالتلغراف كما قد يوجد تبايع قد كان قبل يبعد
من تاجرٍ حلَّ بإقليمٍ يُرى مع آخر بخامس تقررا
ترك القلاص قد أتى مصححًا وهو بسكة الحديد وضحا
كما يُشاهد لدى استعمالها في كلِّ قطرٍ كان الاعتنا بها
وقد تمالا عرب الحجاز لتهمل السكة في المجاز
فما استطاعوا حيلة لما رجوا وتركت نياقهم وإن أبوا
تواصل الأطباق منها قد ورد كذا عمارة الخراب لا فند
وعكسه والبعدا الأطباق وللأجانب بذا الإطلاق
أي يحسن السلوك للأجانب بسكة الحديد هذا لازب
ولو رأى مصر ومن فيها يرد ذوي اختلاف صور لا تُطرد
ثم عقول ثم ألسن وذين فتنجلي الشُّكوك عنه باليقين
كما عمارة الخراب وقعت في غير موطن به قد وضعت
كذاك تخريب العمارة وقع لمسكن أكثر منه قد نفع
إزالة الجبال عن مقرِّها في باب سكة الحديد أجرها
رأيت ما لم نرَ من أمورٍ عظيمة دلالة البشير
فكلّ حادث عظيم ظهرا يشمله هذا الحديث ازدهرا
فالناس للأربعة العناصر استخدموا وما لهم من زاجر

طاروا لدى الهواء غاصوا في البحور   وخرقوا الجبال دققوا الأمور

واستعملوا المراكب البرّية   كما أجادوا السَّير في البحرية

بلا توقفٍ على ريحٍ ولا   منعهم ما كان منعه انجلا

وربنا يخلق ما لا تعلمون   به خطاب كلّ عصرٍ مستبين

وتوجد المروج في أرضِ العرب   كذلك الأنهار أيضًا لا عجب

وهي الرّياض ذات نبتٍ وشجرٍ   وثمر ينبت قبله الزهر

فقد غدت بسكة الحديد   من شامها لطيبة المحمود

ذات منازل منيلة الوطر   كل الذي ركبها يبطي حضر

وطيبة تعني بأرضِ العرب   وهي الجزيرة والأول اجتبى

كذا خروج مبتغي الصحة من   طيبة للشام دليل قد زكن

وصول من يطلب صحة بدن   راكب سكة بيومين قمن

ركوب ذي العلَّة في ظهر الجمل   إليه ربما يزيد في العلل

ولم يصل وابور سكة إلى   مكة كان فيه قيل الاعتلا

أمكن في بيوتها للعابد   تقرب في جُمعةٍ بالوارد

هذا الذي قرره مسندنا   نقَّادة البحث خدين الاعتنا

العالم المشارك الفهّامة   الرحلة الفاضلة ذو الشهامة

أعني أبا الأسعاد عبد الحي   المنتقى سلالة النبي

قرره لدى جواب سائل   سأله عن سكة للسائل

هل جاء في الحديث ما دلَّ على   ظهورها فكان منها الاجتلا

حرر في تأليفه المناط   مجتلبًا للساعة الأشراط

مبينًا معجزة النبيّ   ظاهرة بعلمه الغيبيّ

مقررًا لواضح الدَّليل   موضحًا للأقرب السبيل

طلب مني نظمه فجاء   كدر سلك أزهر الضياء

يا نفس ما لك تؤمليننا   ما أنت عنه في غنى يقينا

فلتقلعي قيام ساعة قرب   ولتعلمي ما منك أنت يُطلب

يا ملجأ العباد يا خير الأنام   فكن شفيعنا إذا آن القيام

صلَّى عليك الله ما غيب بدا سلام ربنا عليك سرمدا
ثم على آلك ما نجم شرق ثم على الصحابة ما بدا الفلق
أحمد ربي أولاً وآخرا مهللاً مسبحًا مكبرًا

كتبها ناظمها في ضحوة ٥ جمادى الأولى بعد أن شرع في نظمها بين ظهري أمسه عام ١٣٢٨ هـ.

***

[تقريظ الشيخ القادري]

نحمدك يا من لا يزال يبدي من خزائن الغيب ما يعجز عنه العقول، ويبرز من مكنون علمه ما تقف دونه عقول الفحول، حمد من انبسطت في قلبه طوالع أنوار التوحيد، وبزغت في فؤاده شموس التجريد والتفريد، وحملته بوادِه العناية، ولاحظته عيون الحماية والرعاية، فاستغنى عن كل بازلٍ ورباع وثني وقارح وجذع وعتيق ومطهَّم وطموح وشيظم، وماء غمر ونهر، وفلك وبحر، ونصلِّي ونسلِّم على من خُصَّ بتظليل الفيء المنزل عليه، قال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨].

ويتوالى معجزاته في الظهور ما توالت السنون والدُّهور، سيدنا محمد أحمد كل حامد، وأعبد كل عابد، الذي ما ترك شيئًا كان أو يكون إلا وأنبأنا به طبق ما في الكتاب المكنون، فصلِّ اللهم عليه وعلى آله المقبسين من أنواره، السَّابحين في بحور علومه وأسراره، المقتطفين من فنون أزهاره، وصحابته الذين آمنوا به وعزروه ونصروه، وقاموا بشريعته.

أما بعد.. فقد أوقفني أخونا في الله الشريف المنيف، الفاضل الغِطْريف، الباسل، اللَّوْذَعي، الأرْيَحِي، الألمعي، المعَمَّم، المخْوَال، الصَّعْتَرِي، المحدِّث، الحافظ، العَبْقَري، العلاَّمة، النحرير، صاحب القلب البارع والتحرير، والتآليف العديدة، والمآثر المديدة، لا سيما في معرفة الأسانيد، ونقل أحوال الرجال، فإنه الفرد الذي لا يشق غباره فيها، ولا يجاري في ذلك المجال، ولا يعزر في أقرانه بثاني، ولا يقصد المعالي على كواهل التَّواني، ولا يعوقه عن التحصيل نقر الغواني، أعيذه بالسبع المثاني، سيد ذلك الحي، أبو الإسعاد وأبو الإقبال مولانا عبد الحي، من تحسبه عند سرد المتون وتعداد طرقها غيوثًا، وعند حماية ذمارها ليثًا، أحيا الله به

القلوب، ورقَّاه في علمي الظاهر والغيوب، ابن الشيخ الكبير المحدِّث الشهير، شيخ الطريقة، ومنبع الحقيقة، أبي المكارم الشريف الإدريسي الكتاني على تأليفه العجيب ذي الأسلوب الغريب المُسمَّى بـ«**اليواقيت الثمينة في الأحاديث القاضية بظهور سكة الحديد ووصولها إلى المدينة**».فإذا هو عقد تألف من أنواع اليواقيت والزبرجد الفاخر، استخرجه مؤلفه من بحر علمه الزاخر، فتبارك الله ما أتقنه من عالمٍ أتى في هذا التأليف بتحريرات وفوائد حسنة، واستنباطات لم يسبق إلى مثلها في المسألة، جعله الله من العمل المشكور، والأجر الموفور يوم النشور. كتبه عبيد ربه الغني محمد بن إدريس القادري الحسني في ١٥ من رجب عام ١٣٢٨ هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلَّى الله على سيِّدنا ومولانا محمد المصطفى الكريم
وعلى آله وأصحابه أولي الكرامة والتعظيم

[قصيدة للشيخ الجليلي]

يقول أسير الشهوات، كثير الغفلات، الراجي من فضل ربه غفران جميع ذنبه، عبده شعيب ابن الحاج علي المدعو أيضًا أبو بكر شعيب بن علي بن محمد فضل الله ابن أبي بكر بن محمد بن عبد الله الجليلي الحسني وفَّقه الله:

لما وصلني الكتاب: «**اليواقيت الثمينة**» هدية من مؤلفه، كان الله معيني في أموري ومعينه، راغبًا مني في طبعه أن تيسر لنشر، حيث هو من معجزات سيد البشر، الشّفيع في جميعهم يوم المحشر، صلَّى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه خير صحب وآل، ما سطع برق ولمع آل، قلت في تقريظه ما نصَّه:

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلَّى الله على المصطفى الكريم، وعلى آله وكل مؤمنٍ حليم

أذكر بسم الله في بدأ النِّظام ... وأستعينه على نيل المرام

جلَّ علاَه سخَّر الملوك ... وييسر المسير والسلوك

في البرِّ والبحرِ وفي الهواء ... لحكما القوت بالكهرباء

وبالبخارِ الناشئ عَنْ فحمِ الحجر ... سبحان من شرَّف بالعقل البشر

عن الشبيه والمثيل والنظير ... والنِّد والشَّرك أيضًا والوزير

وغيره ليس له تأثير ... في الكونِ فهو الواحدُ القدير

يقول للأشياء كُنْ تكون ... وله في كلِّ يومٍ شئون

يبديها ليس يبتديها فاعلم ... ولا تمد عن الطريق الأقوم

ثم أصلِّي وأسلم على ... سيدنا محمد شمس العُلى

مَنْ كان أخبر بما قد ظهرا ... مصداقه في عصرنا المؤخرا

قد أبرزته القدرة القديمة ... معجزة بينة قويمة

صلَّى وسلم عليه الله ... ما عطرت بذكره الأفواه

وآلـــه وصـــحبه الـــثِّقات ... فـي كـلِّ مـا رووا مـن الآيـات
هَـــذَا وإنـــي العـــبد عـــبد الله ... شـــعيب المرتجـــي عفـــو الله
نجـــل علـــي شـــبل عـــبد الله ... تغمدتـــــنا رحمـــــة الإلـــــه
أقـــول والحـــول بـــالله دَوْمًـــا ... وســـع ربـــي كـــل شـــيءٍ عِلْمـــا
أحمـــده لـــيسَ علـــيه يخفـــى ... شـــيء فـــي أرضٍ أو ســـماء يلفـــى
ســـبحانه وهـــو العلـــيُّ الأعلـــى ... أنـزل مـا فـي الذِّكـر أضحى يُتلى
مُـــــنْذُ ثلاثمائـــــة ســـــنين ... والألـــف والـــثمان والعـــشرين
فـــيه إشـــارةٌ لمـــنهاجِ الحديـــد ... اللَّـــذ غـــدا مقـــربًا كـــل بعـــيد
وشـــبه ذَاكَ مـــن المحـــدثات ... كالكهـــربا وســـلك الإخـــبارات
كقـــوله يخلـــق مَـــا لا تعلمـــون ... وقـــوله مـــن مـــثله مـــا يـــركبون
وقـــوله إذا العـــشار عطلـــت ... رابـــع آي إذا الـــشمس كـــورت
وذَا فـــي تفـــسير الكواشـــي الـــبدر ... يـــرويه عـــن شـــبل عـــباس الحبـــر
وســـورة الحديـــد فـــيها يُذكـــر ... فـــيها مـــنافع للـــناسِ يؤثـــر
كمـــا أتـــى عـــن النبـــيِّ طـــه ... فـــي ذاك إخـــبار بهـــا يباهـــي
خـــرجها محـــدِّث العـــصر الـــذي ... بلـــبن العـــرفان فـــي الـــصبا غـــذي
ذَاكَ الإمـــام علـــم الإعـــلام ... وارث ســـر ســـادة عظـــام
مـــرجع أهـــل طلـــب الإســـناد ... أعنـــي أبـــا الإقـــبال والإســـعاد
وهـــوِ عـــبدُ الحـــي نجـــل مـــن غـــدا ... أبـــا المكـــارم يكنـــى المقـــتدي
عـــبد الكبيـــر الـــسَّيد الكتانـــي ... لا زال يـــزكو ســـرّه الربَّانـــي
وذَاكَ فـــي اليواقـــيت الثمـــين ... فإنـــه أجـــرى فـــيها معيـــنه
بذكـــر مـــا يـــشعر بالمـــشِيئَة ... وبوصـــولها إلـــى المديـــنة
مـــستنبطًا إفـــادة لمـــا وقـــع ... مـــن الأمـــورِ وكـــذا مـــا لـــم يقـــع
نـــبه فـــيه عمّـــا عـــن غفـــلا ... فـــوارس العلـــوم ســـادة المـــلا
أجـــدى وأبـــدى وأفـــاد وأعـــاد ... جـــزاه ربـــنا بخيـــرٍ فـــي المعـــاد
حـــاز بـــذاك قـــصب الـــرَّهان ... حفظـــه الله العظـــيم الـــشّان
مـــن آفـــةٍ وعاهـــةٍ وعـــينٍ ... وظـــالمٍ وحاســـدٍ ذي ظعـــن

وفسَح المولى له في العُمرِ ينقبن عن علوم العصر
ويوقظن من كان في غفلةٍ عن علامات الساعة من ذوي الظعن
فيا لله دره من عالم أوضح ما كان من المستبهم
ويَالهُ من جَهْبذٍ وعَارف أبدى لنا ما كان عنّا قد خفي
وليس ذَاكَ منه بالمستغرب فإنه ابن مصطفى المقرَّب
من علمه عمَّ المكونات بأسرها غابرها والآت
أي كل ما كان وما يكون علّمه وبعضه مصون
وكيف لا والبعض من معلومه هو علوم اللّوح مع قلمه
وقد أتى سر أبيه الولد وبالخصوص من أبوه أحمد
صلَّى عليه الله ما دام الحجا يستنبطن أدلة وحججا
وآله وصحبه ذوي الهدى وكل من بهديهم قد اقتدى
تاريخه في قولي شكر حقٌّ لكلِّ من أفاد علمًا يبقى
والحمد لله به الختام ثم على المؤلف السَّلام

انتهى

[قصيدة أخرى للشيخ الجليلي]

وقال أيضًا وفَّقه الله تعالى وسدده، وأدام سروره وعافيته وتأييده:

أحمد مَنْ ألهمنا حفظ الكتاب المنزَّل
أصل العلوم كلّها آخرها والأول
ثم صلاة الله ما فاح عبير المندل
تترا على الهادي طه مفتاح كل مقفل
ذَاكَ الذي قد جاءنا بعلم كل مرسل
والآل والأصحاب مع جميع من لهم ولي
هذا ولما أشرقت على الجدارِ الأجمل
شمس اليواقيت التي تضمنت ما قد جلي
من محدثات عصرنا كالكهربا واللّذ يلي
مما به أضحى السفر برًّا وبحرًا أسهل

ومـــثله أخـــذ الخبـــر وإســـراع بالمـــنقل

قـــد قلـــت فـــي ســـريقه مـــا ينبـــئ عـــن تطفلـــي

إنَّ اليواقـــيت غـــدت تـــذهل كـــل عاقـــل

إذ علمهـــا الـــذي حـــوت قـــد غـــاب عـــن أوائـــل

لله در فكـــــــــــرة أبـــي الإســـعاد الأكمـــل

عبـــيد الحـــي ابـــن الولـــي عـــبد الكبيـــر الأفـــضل

فـــيما بـــه أتحفـــنا مـــن معجـــزات المرســـل

صـــلّى علـــيه ربـــنا والآل مـــن كـــل ولـــي

وعمـــــنا جميعـــــنا بحفظـــه المولـــى العلـــي

قـــال ذا راجـــي رأفـــة المـــولـــى الكـــريم الأعـــدل

شـــعيب العـــبد الراجـــي غفـــران كـــل زلـــل

ورحمـــــة ونعمـــــة دومـــا كغـــيث وابـــل

تم المقصود بحمد الله المعبود على يد كاتبه عبيد ربه الراجي
أسنى مواهبه محمد المدعو السِّفطي مجلد الكتب بصناعة الجزائر

* * *

فهرس المحتويات

الباب الأول

الباب الثاني